إلى القــارىء

قد يقال إن أعمال الشغب التى تسبب فيها عدد من « الطلبة » يومى 9 و 10 فيفرى المنصرم لا تعدو أن تكون تعبيرا عنيفا عن حيـوية الشبـاب ومظهـرا صريحا لأزمة المراهقة التى لا مندوحة عن مرور كل الاجيال منها ، وفرط طاقة حياتية لم تجد متنفسا لها، وقد يحمل هذا الاعتقاد بعضهم على التسلى والتصبر.

وقد يظن أنه من طبيعة الاشياء ومألوف الظواهر الاجتمـاعية والسيـاسية المعاصرة أن يعبر الطلبة عن مواقفهم السياسية سـواء تضامنـوا أو احتجـوا وتظاهروا من دون ان يقيموا وزنا لاى اعتبار آخر غير الثورة الجامحة والتمرد المطلق على ما يرونه شرا وجورا أو عبثا وجوديا .

والواقع ان هذا التعليل لا يخلو من الصحة وان كان تحليله يقتضى تعمقـا واستقصاء وإلمـاما بشتى المعطيات التـاريخية والاجتمـاعية والاقتصـادية والنفسانية المتفاعلة وذات التأثير المتراكم المتضاعف .

إلا أننا مهما التمسنا الاعذار ووضعنا الامور فى نصابها ـ كما قد يقال ـ لا يمكن أن نسكت عن الاعمال الدنيئة التى اقترفتها شـرذمة من المنتسبين الى العلم والثقافة ركنت الى الترهيب والعنف ولم ترعو عن الكذب والبهتان للتأثير على سواد الطلبة وجرهم لا الى الاضراب عن الدروس فحسب بل الى التطاول على النظام ومقوماته المقدسة بدعوى تأكيد تضامنهم مع شعب شقيـق مكافح لم يتركوا لممثله الشرعى حتى حق الكلام أثناء اجتماع عام مرخص فيه ، والحال أن الشعب التونسى وأولى الامر فيه لم ينفكوا يؤكدون مساندتهم الايجابية له.

ونحن الذين طالما ناضلنا من أجل الحرية ـ ولانزال ـ نستنكر ـ باسم الحرية الحق والديمقراطية الواعية ـ تصرفات كل من يعبث بحرية الناس ويكيل لهم الشتم والسب كيلا ويخنق أصواتهم ويكم أفواههم بدعوى « الحرية » ـ وهـذا ما وقع بالذات وبالخصوص فى الاجتماع العام المنعقـد يـوم الاثنين 9 فيفرى ببورصة الشغل ـ ، مما يقيم الدليل على ان عددا من طلبتنا ما زالوا فى طـور السفاهة لم يستشرفوا مستوى النضج والشعور بالمسؤولية اللذين لا يكون للحرية دلالة ولا جدوى من دونهما !

وان نظامنا الجمهورى الشعبى الذى يتشرف بما أنجزه فى ميـدان التعليم وحققه من حيث تكافؤ الفرص حتى يبلغ الشباب أعلى المراتب العلمية مهما كان مستوى أسرته الاقتصادى والاجتماعى والذى يحرص على تـواصل الاجيـال بتواصل النفس وتعزيز الثقة المتبادلة وتشجيع الحوار الخلاق ـ ليربأ بشبابنا المتعلم عن مواقف الطيش والانسياق مع فئة من المغامرين يسوؤهم ان تنجح تونس حيث اخفقت شعوب أخرى كثيرة سواء كانت غنية أو متنامية ، ويحز فى نفوسهم ان تدرأ عروة الوحدة القومية الوثقى عن هذه البلاد خطر التشتت والفوضى وبلية الاحقاد والفتن .

فاذا ما صان طلبتنا ومحط آمال وطننا أنفسهم من الصيادين فى الماء العكـر فانهم واجدون دائما فى هذا الشعب وفى المسؤولين الشرعيين عنه كل التفهم والتفتح والتقدير مما يساعدهم على دعم شخصيتهم وتكوينهم الكامل الصحيح وتأهيلهم الى الاضطلاع بمسؤولياتهم فى بناء الأمة وحمـل المشعـل المقـدس لاسعاد الوطن .

« الفكـر »

السنة الادبية والفكرية القومية

بقلم : البشير بن سلامة

إذا كان أغلب التونسيين فى مغربنا الكبير قد شعروا منذ الاستقلال ، بعد عمل سياسى متميز نوعى ، طال أكثر من أربعين سنة لتخليص الشخصية التونسية من الشوائب والادران، بان وطنهم له وجهته الخاصة فى معالجة القضايا والمسائل التى تعترضه فانهم فى حقيقة الامر لم يدركوا ذلك ادراكا علميا لأن الدارسين والبحاثين لم ينكبوا على هذه الظاهرة بل أهملوها إهمالا إلا أقلية صدقت نفسها وأبرزت قيمة هذا العمل فى ميادين مختصة قليلة .

واذا كان هذا المنحى ظاهرا بارزا ، فى الادب والفكر بالنصوص الثابتة التى يمكن الرجوع اليها بسهولة فان الدارسين والباحثين أيضا لم يؤمن أكثرهم بجدوى هذا الاتجاه ولم يحاول ضبط الخصائص القارة للخلاقين الذين أنبتتهم هذه التربة واكتفت أقلية بكلمات غامضة تحتاج الى المؤيدات والتعمق مثل الاصالة ثم خافت من فقدان التوازن فنادت بالمعاصرة والحال أن الشأن يدعو الى البحث من دون مركب ومفارقة عن المد الذى مكن هذا الشعب الذى هو جزء من المغرب العربى ، من الصمود والثبات عبر الدهور والذى أسميه السنة الادبية والفكرية القومية .

وإن هذا العمل المتواضع السريع الذى أقدمه للقراء الكرام هو مساهمة بسيطة فى الاتجاه الذى ذكرته وهو يحتاج الى عمل الاختصاصيين من لغويين وفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع وهو يحتوى الى ذلك على قسمين : قسم يتمثل فى كلمة شاركت بها فى المائدة المستديرة التى نظمها نادى أبو القاسم الشابى (انظر الاصداء) وقسم هو تعريب لما كتبه باحث فرنسى عن خصائص الادب الافريقى باللغة اللاطينية الذى اكتمل وأشع فى قرطاج ومن قرطاج .

ولعل هذه المساهمة تدفع الكثير من الشباب الذين يشعرون بالفراغ الايديولجى (*) الناشىء عن عدم الثقة لا بالنفس فقط بل فى الواقع بامكانات وطنهم العظيمة وتدفع أيضا المترددين من الدارسين والباحثين الى بلورة هذه السنة الادبية والفكرية القومية وتركيزها وتجسيمها .

(*) لقد نبهت الى وجود هذه الظاهرة فى الشباب التونسى فى عدد خاص بالاسلام وتحت عنوان : « الشباب التونسى والاسلام » مجلة « الفكر » ـ السنة 11 ـ العدد 9 ـ جوان 1966 ـ ص 8 .

- 1 -

الانتاج الأدبي وسلامة اللغة

إن فى عنوان هذا الموضوع (*) لغرابة فى الظاهر لأن الانتاج الأدبى فى الواقع ومن طبيعة الاشياء تكون لغته سليمة وإلا كيف تطلق عليه كلمة إنتاج أدبى ويحشر فى باب الادب ·

ولكن هذه الغرابة تزول شيئا ما عندما نفطن الى أن المشكل أو القضية إن كانت هناك قضية هى أن الكثيرين من الحلاقين ولا أقول المنتجين عمدوا الى التجنى على اللغة العربية وفى ذهن الكثير عمدوا الى إفساد اللغة ونالوا من سلامتها وأمنها · إنهم إذن معتدون آثمون ، يحق لنا أن نرفض انتاجهم ولا نعده من الانتاج الادبى ·

ولكن ما هو المقياس فى اعتبارنا لسلامة اللغة ؟ وأى لغة من العربية نعنى ؟ هل هى لغة شعراء الجاهلية وخطبائها أم هى لغة القرآن ؟ وكلنا يعلم العنت الذى وجده النحويون واللغويون الاولون فى ضبط قواعد هذه اللغة واخضاع شرودها والانصراف الى تقنينها كلفهم ذلك ما كلفهم حتى ولو أدى بهم الامر الى إيقاف حركية هذه اللغة ·

غير أن قوة اللغة الفصحى وقدرتها على الانصهار فى الحياة العربية الاسلامية المتدفقة آنذاك لم يوقفها عند حد واخرجت لنا فحولا وعباقرة أخضعوا اللغة الى مقتضيات حياتهم وخصب وجودهم فعدوهم محدثين مولدين وعددناهم نحن كلاسكيين بلغاء · فهل نطمئن الى لغتهم هم أم الى لغة من قبلهم ؟ هل نقيس سلامة اللغة على لغة ابن المقفع وهو الذى صهر الجملة العربية صهرا جديدا لم يعرف قبله أم لغة الجاحظ وأبى حيان التوحيدى ، أم لغة المعرى والغزالى ، أم لغة ابن خلدون والشابى والمسعدى ؟ كل هؤلاء وفى كل فترة من فترات حياة اللغة العربية بهم دخلت ألفاظ جديدة واستعملت كلمات فى معان جديدة وتعقدت التراكيب ودخلت فى الجملة العربية روح جديدة ونفس جديد حرك اللغة وهزها هزا لتتجاوب معها النفوس فى كل عصر وتعبر بقوة وفى انسجام تام عن كل دوافع الحياة ومشاغلها ولو أن هذا لم يكن باطراد ·

ولكن للأسف أن ليس لنا ، والمجامع العربية تعمل باستمرار منذ ما يقارب الاربعين سنة ، قاموس يضبط تطور الالفاظ والكلمات العربية فى فتراتها

(*) هذا نص الكلمة التى القيتها فى نادى أبو القاسم الشابى ·

الطويلة المتعددة وليست لنا دراسات تبين ما طرأ فى كل حقبة ازدهرت فيها العربية من تراكيب وهياكل للجملة جديدة ٠

ولعل أهل العربية فى هذا عزموا فى قرارة أنفسهم ألا ينظروا الى اللغة نظرتهم الى الكائن الحى بل نظروا اليها كشىء معلق براق وهاج مشرق ثابت لا يتزحزح فظنوا ولعلهم واهمون ، أن اللغة لم تتغير تماما وانما هى هى ، ولهذا فانهم أعرضوا اعراضا عن النظر الى لغتنا من هذه الناحية ٠ واستعاضوا عن هذه النظرة بفكرة أخرى أعدها خطيرة جدا على العربية وهى سعة اللغة اذ اعتبروها ثابتة فى حد ذاتها غنية بصفة مطلقة ولهذا اختلفوا فى كثير من القواعد وفى كثير من المعانى ولم يؤكدوا البتة هذا المد المتتابع الذى يتقدم باللغة من فترة الى أخرى ومن كاتب الى آخر ٠

ولعل خلاف اللغويين والنحويين اذا نظرنا اليه من وجهة حركية اللغة لا سعتها كان فيه رحمة رحمة باللغة العربية اذ هى لو ضبطت ضبطا محكما مرة واحدة وللأبد ، كما يتوق اليه البعض أو يعتقده ، لكان فى ذلك جمودها المطلق الذى لا رجعة فيه ٠

لهذا فان إيجاد مقاييس يتفق عليها لسلامة لغة الخلق أمر يكاد يكون مستحيلا من أول وهلة نظرا لتعدد المقاييس ونظرا الى أن أعظم ما يتطلبه ويشترطه المقبل على الانتاج قراءة ودرسا هو درجة سيطرة الخلاق على اللغة ببث روح جديدة فيها ، تذهب به حتى الى الخروج عن بعض قواعد اللغة وتراكيبها ٠ وهذه الناحية لا يخلو منها شعر عبقرى من عباقرة العربية ولا انتاج كاتب من كتابها فى القديم ، وهو ان أنعمنا النظر وجدنا أن حاجة أكيدة ماسة دعت الى ذلك أو تأثيرا مباشرا مأتاه الحياة اليومية ومنشؤه المشاغل الوجودية ٠

لهذا فان من انصرف جل حياته الى التأثر بالجاحظ والانطباع بلغته فانه يجعله مقياسا لكل ما يقرأ وتظهر له حتى عند كبار الكتاب الذين أتوا بعده عيوب ما هى بالعيوب ٠

كما أن من انكب على أدب عصور الانحطاط وعلى انتاج من جفت فيه روح الخلق نجد لديه المقاييس بالنسبة لسلامة اللغة مائعة الى حد الفوضى ٠

إذن ما هو الموقف من هذا المشكل وهل اننا نقتصر على الوقوف موقف المشاهدة والحكم بنسبية هذه المقاييس ونترك الحبل على الغارب لكل خلاق ولكل منتج وندعى أن قوة هذه اللغة وقدرتها تجعلها تخرج عن كل ضبط وتحديد شديدين ٠

أليس فى النظر الى اللغة بصفة مطلقة ، بقطع النظر عن الزمان والمكان خطر يجعلنا لا نتحكم فى مصير لغتنا وبالتالى مصيرنا ويجعلنا نميل الى تسليط اذواقنا والاكتفاء بوجهات نظرنا من دون الرجوع الى واقع الامور ٠

وواقع الامور هو أن ننظر الى تاريخنا ونعرف موقف شعبنا طيلة الاحقاب من ظاهرة اللغة وموقف الخلاقين والمنتجين فى هذه الديار ٠ هذه هى الطريقة التى يمكن أن نصل بها أكثر من غيرها وبأهون الاخطاء الى اتجاه ثابت قار لعله يحمينا من النظر المجرد والفكرة الهوائية ٠

فهل لنا دراسات لغوية عصرية تبين لنا التطور الذى حصل للغة الفاتحين المسلمين وكيف صهر هذا الشعب هذه اللغة بما له من مقومات وبما له من شخصية شأنه فى ذلك شأن سائر الشعوب العربية ؟

وهل حاول الدارسون للادب التونسى القديم أن ينظروا الى أدب ابن رشيق والحصرى وابن خلدون مثلا بصفتهم ابناء هذه البلاد وقد أثر فيهم مناخها وتطبعوا بخصائص شعبهم وهل حاولوا البحث عن الجوانب التى طور بها هؤلاء الادباء اللغة العربية فأتت شيئا آخر وإن كانت فى الظاهر هى هى ؟

وهل بين لنا الدارسون على الاقل التيار الذى كان يحافظ على العربية أشد المحافظة خوفا عليها من كل ما يمكن أن يؤثر فيها من مقتضيات الحياة الخاصة بكل شعب ٠ حتى رأينا اللغة الفصحى تبتعد الى أقصى درجة عن اللغة العامية لكل أمة من الامم العربية ؟ وهذا التيار ما زالت الى اليوم آثاره باقية ٠

وهل ظفرنا بدراسات ضافية عن لغة الموشحات بالاستناد الى السنة الثقافية التى درج عليها أهل الاندلس وبالاعتماد على مقومات ذلك الشعب ٠ لقد اكتفينا بعموميات وغضضنا الطرف عن أهم العوامل التى صهرت اللغة العربية فى الجزيرة ؟

هذه أسئلة طرحتها لأننى أعتقد أن فى كل شعب من الشعوب العربية مقومات وخصائص ثابتة قارة هى التى طورت لغة الكلام من جهة وهى التى أثرت فى لغة الخلاقين ان كانوا أصيلين أبناء شعوبهم حقيقة أو هى لم تؤثر فبقيت لغتهم هوائية جوفاء مجرد كليشيات ٠

لهذا من واجبنا أن نبحث عن هذه المقومات وهذه العناصر القارة الموجودة فينا وخاصة عن هذه **السنة الادبية والفكرية القومية** التى لم تتغير منذ أزمان والباقية فينا مدى الدهر نغذيها من دون أن نشعر وغذاها قبلنا أجدادنا كلما تدفقت فى أنفسهم الحياة وتيقظ فيهم الحس وتفتقت لديهم القرائح ٠

هذه السنة الادبية والفكرية القومية يجب البحث عنها فى جميع أحقاب حياة شعبنا وخاصة ، فيما انتجته قرائح أدبائنا بأية لغة كانت .

ألم يحافظ أهل الجزيرة العربية رغم إسلامهم وتحمسهم له على السنة الادبية العربية التى ترعرعت وثبتت وأحكمت مقوماتها قبل الاسلام بالرغم عما أتى به الدين الحنيف من دعوة الى تطهير الاذهان وتأثير على العقليات للنظر الى الحياة نظرة جديدة حافظ العرب على سنتهم الادبية وتمسكوا بها فى الشعر خاصة وفى أغلب أنماط أدبهم لأنهم اعتقدوا وهم محقون أن ذاك هو روحهم لا يمكن أن يغيروا فيه شيئا . ورغم هذا فان من دخل على الادب العربى من الامم الاخرى وخاصة الفرس دخلوا بسنة ثقافية أخرى وحاولوا بما تأتى لهم من قوة ان يطبعوه بها العربية وأفلحوا أحيانا بما طعموا به العربية من الفاظ وتراكيب وغيرها وأخفقوا أحيانا أخرى.

فلماذا نحن كشعب عريق فى الحضارة لا ننظر الى أدبنا والى أدبائنا قبل الفتح الاسلامى ونحاول أن نضبط السنة الادبية والفكرية التى درجوا عليها لعل ذلك يدلنا على حقيقتنا ويعرفنا بذاتنا ويبرز ملامح شخصيتنا التى عملت أنظمة كثيرة أجنبية على طمسها واحلال معالم مشوهة مكانها قد بقى شعبنا من حسن الحظ مقاوما لها منذ الآزال رغم الظواهر .

ولعل مما يؤيد هذه النظرة أن الادب اللاطينى (*) الذى خلفه أبناء قرطاج قبل الفتح الاسلامى وزخرت به مكتباتها يحمل بين طياته هذه السنة الادبية والفكرية القومية التى نجدها بالتالى مبثوثة كأحد ما يكون البث فى أدب الشابى والحداد وسعيد أبى بكر والدوعاجى . وإن الذى يهمنا منها هنا هو مواجهة الادباء التونسيين مثل أغسطينوس وأبوليوس وغيرهم لظاهرة اللغة وهى اللغة اللاطينية .

هؤلاء الذين نشأوا ولغتهم هى البربرية البونيقية وتعلموا فى المدارس اللغة اللاطينية الكلاسيكية وسمعوا وتأثروا باللغة اللاطينية العامية كان موقفهم من هذه اللغة عندما كتبوا ان طوروها وأدخلوا فيها ألفاظا جديدة وتجنوا على نحوها وأسسوا نظما جديدا كان هو نقطة انطلاق للشعر الاوروبى الحديث .

(*) للاستاذ محمد فنطر مسامرات فى الاذاعة الوطنية حول الادباء التونسيين الذين كتبوا باللاطينية قبل الفتح الاسلامى وهى احاديث ممتعة ومفيدة جدا .

ولقد أعرضوا عن كل تقليد وأعرضوا عن كل ما يخونهم فى روحهم الافريقية ويجعلهم أجانب فى قومهم • ولقد صرحوا بهذا فى أدبهم الزاخر الذى إن قرأناه وجدنا فيه تجاوبا كبيرا وقربا منا محيرا •

ولم يمنع هذا الادب الذى كان وفيا لقومه من أن يصبح انسانيا اذ أنه يكاد يكون هو الوحيد وهو باللغة اللاطينية الذى يقبل عليه عامة القراء فى العالم كاعترافات أغسطينوس والمسوخ لأبوليوس •

وهكذا فان اللغة اللاطينية بشهادة جميع الدارسين لم تعرف أمة طبعتها بطابعها الشخصى من اقحام لكلمات شعبية ومن تطوير للجملة المطنبة الى جملة قوية ، متوترة ، براقة ، ملونة مثل هذه الأمة •

هم نظروا الى اللغة ككائن حى واعتبروا أن الامر بالنسبة اليها ليس هو مسألة أساليب تتعدد بتعدد الكتاب على حساب نمط واحد ولد فى بيئة معينة وفى ظرف معين وراحوا يستخرجون منه ألوانا ترجع فى الآخر الى النمط الاول بل هم اتجهوا الى اللغة نفسها يفجرون منها نمطا يتماشى مع طبيعتهم وطبعهم ومع مقومات شخصيتهم المتأثرة بجمال هذه الطبيعة وبعنفها فى آن واحد وبشمسها المشرقة وتيقظ الخيال والحس بها وبوهج العقل وتوقد الفكر • فأتت لغة هؤلاء متميزة عن لغة غيرهم من الكتاب اللاطينيين والتآليف فى هذا موجودة ترقب من يلقى عليها نظرة ويجرى فيها النظر هذا المجرى •

ولقد بقيت هذه السنة الادبية والفكرية فى الشعب التونسى عندما اعتنق العربية وظهر هذا المنحى فى الكتابة باللغة العربية عند الافذاذ الذين أنبتتهم هذه التربة مثل ابن رشيق فى كتابته المتميزة عن غيره من النقاد العرب وفى شعر الحصرى وما انبنت عليه لغته من حرارة اللفظ وتوثب الجملة وغرابة فى بعض الاحيان وغيرهما من الادباء • كما أن هذه السنة الادبية والفكرية القومية ظهرت أحد ما تكون عند جيل الشابى الذى أحس مفرط الاحساس بقوميته وبنوعية شخصيته حتى وصل به الامر وهو الذى لم يعرف لغة غير العربية الى أن يصرخ متألما عندما قال فى الخيال الشعرى عند العرب : « إن الذى يفض منا معشر التونسيين أن نتخذ من هذا الادب [الادب العربى] الذى لم يخلق لنا ولم نخلق له غذاء لأرواحنا ورحيقا لقلوبنا لا نترشف غيره » • وواجه مشكل اللغة بأن بث فى الشعر العربى ايقاعا جديدا ونفسا جديدا لم تعرفه العربية من قبل •

وأكبر وعى بمشكل اللغة هى لغة السد للمسعدى فان الذى يبهر القارىء من أول وهلة هو هذا الاعتناء المفرط بالجملة وهذا العزم الثابت الملحاح لقلقلة

اللغة وصهرها والتغلب عليها والتلاعب بها • أليس هذا من قبيل ما سماه الدارسون للأدب اللاطيني بالاسلوبية (Stylisme) واقروه كظاهرة خاصة بالادباء الافارقة الوثنيين منهم كأبوليوس والمسيحيين مثل أغسطينوس • هى السنة الادبية والفكرية القومية ورثناها وما زلنا اوفياء لها كلما صدقنا أنفسنا واخلصنا اليها •

واليوم ونحن نجد أنفسنا أمام ثلاث لغات تتنازعنا عند الكتابة اللغة الفصحى واللغة العامية واللغة الفرنسية ماذا يكون موقفنا من لغتنا •

هل نضيق على أنفسنا الى حد الذوبان فى الغيز أم نسير حسب سنتنا التى درجنا عليها فى جميع العصور وهو صهر اللغة والتصرف فيها بحسب طبيعة الخلاقين منا بشرط أن نبقى على عبقريتها وعبقريتها عندى هى كامنة فى نحوها فقط • إذ المحافظة على القواعد النحوية أمر لا محيد عنه لمن يريد أن يكتب بالعربية والا فكتابته عامية أو بلغة أخرى غير العربية •

سلامة اللغة اذن ليست فى المحافظة على لغة البلغاء ولا على لغة الجاحظ أو غيرهم بل سلامتها أى حياتها هى فى تمشيها مع سنتنا الادبية والفكرية القومية وفى اخلاصها لمقومات شخصيتنا وانصهارها فى مقتضيات وجودنا وارتباطها بأسباب تقدمنا وهى لا تكون كذلك الا بنا نحن اذا أخلصنا لانفسنا وآمنا بشخصيتنا وانصهرنا فى روح شعبنا الممتدة خطا مسترسلا يتضح ويبين على مر الدهور •

– 2 –

رجوع الى النصوص القديمة

تدعيما لما ورد فى القسم الاول أورد هنا ، بتصرف ضئيل ، صفحات من كتاب « بول مونسو » حول الكتاب والشعراء الأفارقة P. Monceaux, les Africains, Paris 1894 وهى تؤكد فى كثير من المواطن ما ذهبت اليه من وجود سنة أدبية فكرية عريقة فى القدم • واذا كان بعض هؤلاء الادباء والمفكرين لم يولدوا فى قرطاج فانهم تكونوا وتأثروا منذ شبابهم بشعب قرطاج وبأساتذة هذه المدينة العظيمة • وما ذكره أبوليوس وأغسطينوس من تمجيد لها واعتراف بفضلها يجعلنا نرجع هذه السنة الادبية والفكرية القومية الى الانتاج الذى نبع منها وانتشر فيها هى قبل غيرها :

قرطاج أم مدن افريقيا كلها فى العهد الرومانى

« اذا نحن اردنا معرفة الادب الافريقي جملة علينا الانطلاق من قرطاج • لان هذه المدينة العظيمة كانت بحق أم المدن فى البلاد كلها ، وكان شأنها فى ذلك زمن الامبراطورية الرومانية كشأنها فى عهد الامبراطورية القرطاجية • فكأنه قدر لقرطاج ان تقوم بدور العاصمة لانها كانت بموقعها فى طليعة البلاد البونيقية والبربرية ولانه كان وراءها مخازن زاخرة بالرجال والاراضى ولانها كانت من جهة بعيدة عن رومة قصد الابقاء على طرافة مظهرها ومن جهة اخرى قريبة من ايطاليا ومن الشرق للانصهار فى التيار العام للحضارة •

فكانت المركز الفكرى لافريقيا الرومانية ، وهو مركز حى ، غنى ، نشيط كان يستوعب جميع قوى الوطن الحية لاخصاب العمل المشترك والاشعاع نحو جميع الجهات • ولقد ولد فيها مؤلفون كثيرون ، وقصدها آخرون للاستيطان فيها ؛ وكلهم مروا بها ؛ ولم ينج واحد منهم من جاذبيتها حتى الذين قادهم طموحهم فيما بعد الى رومة او الذين استقروا فى مدينة بعيدة هناك فى موريطانيا او نوميديا كل الناس كانوا يأتون من شمال افريقيا الى قرطاج للبحث عن مزيد من العلم او فضل من الشهرة او الثراء • فلقد كانوا يجدون فيها كل ما يجعل العواصم الحقيقية كعبة القصاد فى كل الازمان ، اذ لم يكونوا يجدون فيها ترف الحياة واسباب مواصلة الدراسة فقط بل الوسط الملائم لظهور المؤلفات الادبية ولتحريك السواكن ولتمتين صداقات المؤلفين او تضخيم خصوماتهم وكانوا يجدون فيها الجماهير المغدقة للمجد ويظفرون فيها بعموم العارفين الذواقين •

مقـومـات الاديـب الافـريقي

إن معظم كتاب هذه البلاد حتى العظماء منهم يبقون دائما فى جانب من جوانب انتاجهم منغلقين على الفهم اذا نحن أعرضنا عند قراءتهم عن كل الظروف التاريخية التى حفت بهم والادب الافريقي هو بطبيعة الحال مقاطعة بالنسبة للآداب اللاطينية ولكنها مقاطعة لها وجهها الخاص وعاداتها وعبقريتها وأمجادها•

ذلك أنه تعايشت فى افريقيا الرومانية ثلاثة أجناس متنافرة وثلاث لغات متباينة وكذلك ثلاث حضارات مختلفة • فهذه العناصر المنوعة لم تعد ان تراكب بعضها على بعض فى الغرب والجنوب أو فى الارياف : وبهذا لم تنتج شيئا فى ميدان الفكر (*) • غير أنه تأسست منذ القديم فى البروقنصلية وعلى السواحل مدن كبرى او هى تفاقم عمرانها وتمكنت من أن تجمع القوى الحية

(*) وماذا يعد ما قام به أغسطينوس من دعوة الى المسيحية ومقاومة للدوناتوسية أليس هو من قبيل الفكر ؟ (المترجم) •

المنبثة فى المراكز المجاورة وذلك ابتداء من القرن الثانى ميلادى بالنسبة لنوميديا والقرن الثالث بالنسبة لسهول موريطانيا • فى هذه البقاع التقى الرومان الفينيقيون والبربر مختلطين وقد أوشكوا على التصالح • فتولدت عن هذه الزيجات برجوازية جديدة معقدة فى أصولها ، طموحة مؤثرة ، تواقة الى العلم والمناصب ، وفية لروما وللولاة الرومانيين ولكنها قبل كل شيء متشبثة بمسقط رأسها ، إفريقية فى منزعها ومصالحها وعاداتها ولغتها • وهذه العائلات المنتسبة الى بلديات نوميدية أو مورية تنحدر فى آن واحد من أجداد كانوا معمرين أو جندا ايطاليين ، وكانوا أيضا تجارا قرطاجيين وأصحاب صنائع بربرا • وفى بعض الاحيان تنزل على هذه العائلات ومضة من العبقرية أو الابداع : فيولد الكاتب العجيب الشغوف بالدرس الى حد الهوى والمتمرد على الثقافة الكلاسيكية فى آن واحد وهو يظهر دائما بمظهره المستعار تحت ثوب الادب الرسمي ولكنه يتقد حماسا وشجاعة واخلاصا سواء كان يدعى مانيليوس أو أبوليوس أو يدعى ترتوليان أو القديس أغسطينوس وكلهم خليط عجيب صهرته ايطاليا وافريقيا والشرق والغرب •

وهذا الكاتب يبقى دائما مدينا لروما • لان وطنه لم يستيقظ للحياة الفكرية الا بروما • خاصة وان اللهجة البونيقية او الليبية التى تناغى بها وهو فى حضن أمه لا تتلاءم مع مناحى تفكيره : فيضطر الى أن يكتب باللاطينية •

ولما كان أهله يعقدون عليه الآمال العراض فانه من المفروض أن يتعلم وهو صغير على معلم اللغة الرسمية • ويبقى المؤلفون اللاطينيون الذين سحروا طفولته أو صدموها هم المثال الذى يحتذى • وهكذا نفطن بسهولة الى أنه قد مر بالمدرسة • وستبقى عليه دائما مسحة معلم البلاغة •

ورغم ذلك فهو لن يشبه أبدا أحد معلمى البلاغة فى اليونان أو روما • اذ يبقى فى قرارة نفسه ما يجعله يقاوم الثقافة الكلاسيكية •• فلن يكون رومانيا كما أراد • وستبقى الى أبد الابدين فى ذهنه وأسلوبه آثار لغته الأم وهى ذكرى باهتة لسنوات الطفولة ورسوخ للغة الحديث اليومية ، ووفاء لاشعورى لاجداده القرطاجيين والبربر •

وسيبقى معلم بلاغة ولكنه معلم بلاغة افريقى • وسيتنكر لأصوله عندما يندفع فى تقليد روما فى اخلال ظاهر • ولكنه لن يخجل ابدا من الانتساب الى ذويه • بل بالعكس سيكون دائما معتزا ببلاده • وسيستقر بها حياته كاملة ؛ واذا اتفق أن قاده طموحه الشاب الى روما فهو سيندم على مفارقته لافريقية ؛ وسيرجع ، ان أمكن له ، لا ليموت بين أحضانها بل ليعيش طويلا وليتمتع

بمجده . وهو سيختار من بين المؤلفين الافارقة دون سواهم من عظماء المؤلفين بما جبل عليه من خفى التجاوب معهم . ومهما أجهد نفسه فسيجدها غريبة بين الرومانيين فى رومة وخاصة المعاصرين له . وسيكون فهمه أيسر للكتاب القدماء مثل أنيوس (Ennius) أو قاطون (Caton) الذين كان القوم يعجبون بهم أثناء الحروب البونقية والذين جروا معهم المعمرين الاول الى البروقنصلية .

ومما يميزه عن روم ايطاليا ويبعده عنهم اشواطا هو ما ورثه بالخصوص عن الاجناس الافريقية القديمة . فسيكون مدينا لاهله القرطاجيين بمحاسنه ومساويه . فأول ما ورثه ، خصب الخيال والحساسية المفرطة ولكنها مرضية شيئا ما والشعور الحاد الى درجة الافراط . . بجلال الطبيعة . وورث أيضا النظرة الصوفية المرفقة فى شىء من التناقض العجيب الموجود فى قرطاج العتيقة ، بروح عملية بالغة وبانشغال دائم بالنفع ورغبة ملحة لتلقين غيره واقناعه ، وأما فيما يخص الاسلوب فنجده براقا ناصعا بارزا حافلا بالصور ولكنه الى جانب ذلك محشو بالمبالغات ، مرتاح فى افراط الى استعمال الاستعارة حتى فساد الذوق . فبمظاهر ابداعه هذه يقترب المؤلف الافريقي من الشرقيين اكثر من الكلاسكيين . وبهذا يرجع الى قدماء القرطاجيين . أما بأى شىء نرده الى البربر : فبشدة البأس ، وحدة الطبع التى تقود غالبا الى العنف ، وبالشخصية الممتازة ، والنزوع الى الحرية وحب الرحلات الطويلة مع تعلق شديد بالوطن ورغبة أكيدة فى الرجوع اليه .

وهكذا فانه ليس هناك أشد تعقدا من المؤلفين اللاطينيين الافريقيين لاننا نجد دائما عندهم شيئا يكمن تحت الروماني مرده الى القرطاجيين والبربر . ومن هنا يتضح كل ما فى حياتهم ومؤلفاتهم من تناقضات . ورغم هذا فان وجههم المتقلب له نوع من الوحدة : فتزداد نصاعة عند مقارنتهم بكتاب الجهات الاخرى من الامبراطورية . ففيهم هذا الذى يجمع بينهم وهو أنهم أفارقة وأنهم يهيمون ببلادهم وان كلهم تأثروا شديد التأثر بمناخهم المتميز أشد التميز ، فلقد أتمت فيهم أرض الوطن ما بدأه انصهار الاجناس .

ذلك ان بلاد الاطلس هذه سرعان ما تأخذ بلب كل من يغامر فيها . فهى صالحة لاجناس مختلفة اختلافا عظيما لموقعها المتوسط بين السودان وأوروبا الجنوبية والشرق : لقد طاب المقام فيها فى جميع الازمنة لكل من وجد بها من معمرين ايطاليين او اسبان ومن فرنسيين من البروفانس ومن عرب وزنج ويونان وترك . **وهي وان كانت دائما مغزوة فانه ينتهى بها الامر الى كسب غزاتها وصهرهم** ؛ فلم تكن الامبراطورية الفينيقية فى قرطاج لتشبه اختها فى

صور ولا سلاطين تلمسان سلاطين بغداد ولا الجزائر لتشبه فرنسا · فما لبث أن أصبح الاطلس بالنسبة للفاتحين وطنا ثانيا نسوا من أجله وطنهم الاول · وسحر البلاد ليس أقل وقعا فى أنفس أغلظ الجند أو المعمرين من وقعه فى العقول الظريفة وكما كان الامر فى الماضى بقى فى الحاضر · لقد وقع غزو ابناء الغزاة الرومان ·

فالارض الافريقية هى عامل من العوامل له خطره أثر فى الادب الافريقى · فهنا يتحتم النظر الى الطبيعة لفهم الاديب ···

ويتقد الهوى فى هذا المناخ بسرعة بالحب أو الحقد أو الغضب وتحتد الحواس فى غمرة من العطور والانوار والاصوات ، ذلك أن الشمس فى سفح الاطلس تثير نشاط الناس وخيالهم من دون أن تنهكهم أو تثقل عليهم·· وظل الافريقى فى جميع العصور كما هو الآن يندفع بنفس الفورة بين الحلم والعلم · وكما كان وما يزال شأنه فى الحياة ، كان شأنه فى الادب اذ خلق لنفسه منه أسلوبا أشد حرارة وأكثر التصاقا بالملموس وأغزر حيوية : لقد نحا نحو الخيال والهوى أكثر من العقل ، وانطلق فى مجال المغامرة والاقدام أكثر من اتجاهه نحو المنطق والتقليد · فأديب قرطاج أو عنابة بمؤثراته يرجع الى معلم البلاغة اليونانى والرومانى والى النبى الشرقى وصاحب الصنائع القبائلى معا ؛ كل هذا اندمج فى طفرة طبعه وعنف المناخ وأخرج هذا الكائن الطريف المعقد ألا وهو الافريقى ·

أصالة لغة الأدباء الأفارقة

ولقد صنعوا لانفسهم لغة خاصة بهم ، غريبة ولكنها حارة ، خارجة عن الوضع ولكنها حية:وكان النحويون والعروضيون رغم كثرتهم وعلمهم وحرصهم الكبير يخفقون دائما فى سعيهم للتمسك بقواعد النحو والعروض · واذا نحن حاولنا مثلا أن ننتظر من القديس أغسطينيون أو أبليوس استعمالا صحيحا للالفاظ او احتراما للنحو التقليدى فاننا نعرض أنفسنا الى كثير من الخيبات · وفى الجملة فان الشعراء حذقوا النظم الكلاسيكى ؛ ورغم ذلك فاننا نجد عند اكثرهم بعض التحرر فى العروض وبعض الغرائب فى الاوزان ؛ ولقد سخروا فى كثير من الاحيان من كمية المقاطع ؛ **ومضوا ، وهم أول من بادر بذلك ، حتى الى توقيع الابيات حسب نبرة الكلمة** (*) ·

واذا قلبنا الامر على وجوهه فاننا نصل الى نفس النتيجة وهو أن الافارقة

(*) ألا يذكرنا هذا بشعر « غير العمودى والحر » ؟

فى جميع آثارهم الادبية سواء من حيث المضمون أو الشكل أو من حيث اللغة أو العروض قد حفظوا كثيرا عن المدرسة ولكنهم كثيرا ما خرجوا عن التقاليد الكلاسيكية · ذلك انطبيعتهم دفعتهم الى سبل غير مطروقة ·

وهكذا تتضح لنا ملامح الاديب الافريقي فهو من جهة له ملامح الغربى فى صفائها وقوة تعبيرها وحزمها وهو من جهة أخرى لـه مـلامح الشـرقى فى تموجاتها وأحلامها ·

فهو أولا تلميذ نبيه تردد على الجامعات وأتقـن فيهـا النحـو ، والقـانون والفلسفة وكل ما يدرس · وحفظ كل هذا فى ذاكرته من دون نظام · وفى كثير من الاحيان سيثقل عليه هذا الذى حفظه · وهو فى كل مناسبة يميل الى اظهار غزارة علمه ؛ فيكون تارة فيلسوفا وطورا فقيها · وأخرى نحويا · وهو يتوق الى أن ينتفع بعلمه كل الناس ؛ لأنه يعتقد أنه من واجبه ان يكون صالحا ولو ادى به ذلك الى المناقشات الفارغة والادمان على اللفظ فى سبيل اللفظ · وهو الى ذلك رجل مستقيم السيرة ، مواطن صالح ، مخلص لوطنه وأصدقائه وأقربائه والد حنون يهتم كثيرا بتعليم أولاده وهو أيضا لا يخلو من إباء ومن توق الى الحياة الحرة ·

وعلاوة على هذه الاستقامة وهذا النزوع الى النفع وحب الدقة المتكلفة فهو يملك روحا قلقة متحولة تدفعه الى الرحلات الطويلة وحبا للاطلاع على الاصقاع البعيدة بما فى ذلك الآخرة · ورغم حبه لبلاده فانه سرعان ما يفارقها لنزوة تعتريه قصد الاطلاع على الجديد ولو أدى به ذلك فيما بعد الى الندم والرجوع بسرعة الى وطنه · وهو لا يقتصر فى عبادته على التمسك بطقـوس الديانـات الرسمية · فان كان وثنيا فانه لا يستقر على حال فى سبيل ارضـاء تقـواه ، فيرتاح الى الطرق ويعمد الى تعلم سحر العبادات السرية ويأخذ مأخذ الجد كل ما يصدر عن شطحات الافلاطونية الحديثة أو علم التنجيم أو السحر ؛ وان كان مسيحيا فهو يتفنن فى ايمانه ، ويتوغل فى أشد المذاهب غموضا ويتقصى كل منغلق على الفهم وينتهى به الامر غالبا الى الخروج ·

قال سيدوان أبولينار : « إن لاهالى مدن افريقية خيالا ملتهبا أشد الالتهاب مثل مناخهم » · وفعلا فان الافريقي هو رجل ذو خيال (*) متجدد متقد وفنان

(*) ليس من الغريب إذن أن يثور الشابى على تصور الشعراء العرب للخيال ويكتب محاضرته الخطيرة : « الخيال الشعرى عند العرب » · فهل ورث الشابى بحدسه وقوة شاعريته ومن دون وعى كبير هذه الخاصية الموجودة فى اجداده ؟ لعل البحث فى هذا الاتجاه يكشف لنا عن الحقيقة ·

عصبى معرض للانفعال بسرعة • فهو يحب ويفهم الطبيعة العنيفة التى تحيط به ؛ وبسهولة يرسم لك منظرا طبيعيا أو يضبط لك شعورا عابرا • وهو يريد أن يبعث الحياة فى كل ما حوله ، حتى المجردات وهو مولع بالكنايات فهو الرجل الذى تتحكم فيه الطفرة الاولى وهو غير قادر على امتلاك صراحته الشديدة لهذا فهو ينفعل مع جميع ألوان العنف •••

وهو الى ذلك ولد وفى نفسه بذرة الخطابة كما نلاحظه ابتداء من زمن جوفينان ••• فى كل ما يقدم عليه من أعمال سواء تعاطى الفلسفة أو التاريخ أو الدين أو كتب نثرا أو شعرا فانك تجده دائما خطيبا مندفعا مخلصا •

وهو لم يكن مخلصا فقط بل هو ذاتى ؛ وليست هى أخف جوانب طرافته فى العالم القديم • اذ هو يحطم بدون شعور العادات الكلاسيكية • فهو دائما يجعل لنفسه المقام الاول ربما لزهو ساذج أو لحاجة ملحة كامنة فى طبيعته • فهو إن تحدث من فوق منصة وفى مسرح أو كتب قصة أو قصيدة ، أو مقدمة أو هجاء أو مذكرات أو رسالة فى النحو فانه سيتحدث قطعا عن نفسه •• فهو لا يرى او لا يعرف كيف يختفى وراء تأليفه ؛ ولا يفوته أن يكشف فيه عن شخصيته • فظهور النزعة الفردية والذاتية هى من أكبر مظاهر التجديد فى الادب • ولقد كان لافريقية اعتمادا على هذه النزعة الفضل فى انتاج تحفة فريدة فى بابها متمثلة فى فن من فنون الادب كان له من ذلك الوقت الرواج الكبير وهو : اعترافات القديس أغسطينوس •

وكل ملامح المؤلفين الافارقة هذه بمحاسنهم ومساويهم توجد فى أسلوبهم ، وهو أسلوب من غلب عليهم الخيال والخطابة ، اذ هو ذاتى الى حد بعيد ، متأنق ومتفضل معا ، حى ومتفاوت القيمة ، غايته صرف الانتباه وصدم الغير بأى ثمن كان • والمساوى كثيرة : من تهاون متنوع مرده الى الكتابة السريعة والكتابة الشبيهة بالحديث ، ومن أخطاء لا تحصى فى النحو ؛ ومن ضرب من تهور سكان المقاطعات والاجانب القاصرين على التنبه الى العبقرية اللاطينية الكلاسيكية أو على الانصهار فى عادات العاصمة ؛ ومن تنازل متكرر لارضاء الذوق الشعبى ونزوات جمهور مختلط ؛ وعلاوة على هذا هناك رغبة فى الاعجاب مع افراط فى المعلومات وشىء من التحذلق ، وحرص فيما يحدثه من أثر على السامع ، وإغراق فى الطباق ، والوصف ، وفى استعمال الكلمة المجردة وكأنه تكمن فيها قوة عجيبة ؛ وكذلك تلاعب بالافكار ، وتأنق فى الشكل وغرائب شتى وخاصة تهاون فى التحرير والتكرار عند من يرتاح الى فكرته فلا ينفك يرجع اليها للتيقن من تتبع القوم له • ولكن هناك أيضا المحاسن : من خيال خصب فى اكتشاف التفاصيل ومن بدائع راشقة وملامح حية أخاذة ؛

ومن طباق بديع فى الالفاظ يكشف فى صورة جلية عن تطابق المعانى ، ومن شعور حاد بجمال الطبيعة (*) وموهبة فى اقتناص المنظر الخلاب والتصرف فى وصفه ؛ ومن صور شعرية تبرزها الدقة الواقعية ؛ ومن هوى ، وذلاقة ، وحياة؛ وأخيرا لغة طريفة ، ذاتية براقة حارة قادرة على التعبير عن دفق الاحاسيس ولذيذها • ذلك أنه لا فرق بين أسلوب الشعر والنثر مثل ما هو موجود فى الشـــرق •

الأسلـــوب واللغـــة

وهذه اللغة الادبية ، الخاصة بكتاب الاطلس بدأت تظهـر ملامحهـا أثنـاء فلوروس (Florus) وفرنطون (Fronton) وخاصة أبوليوس (Apulée) فى القرن الاول ميلادى ثم اتضح أمرها فى أواسط القرن الثانى • ولقد خلقها بتوخى طرق « الأسلوبية » (Stylisme) وتطبيقها على لغة افريقية التى هى خليط من اللاطينية الشعبية واليونانية والبونيقية ولاطينية المدارس •

و « الأسلوبية » هذه ترجع الى زمن بعيد رغم ظهورها فى أشكال مغايرة • ذلك أن « سالوست » (Salluste) فتح الطريق عندما كسر الجملة المطنبة واستعمل الجمل القصيرة المرهفة المشرقة• وتبعه بعد ذلك « سناك » (Sénèque) و « تاسيت » (Tacite) رغبة فى التأثير وشغفا بالاستعمالات الشعرية ، وجريا وراء الجديد ، والمباغت • ولقد أعجب بهذه الطريقة المؤلفون الاسبـان وهم أصحاب خيال مجنح ، متوثب ، وانطلق على اثرهم الافارقة ، وهم اكثر حدة من الاسبان وبالغوا فى ذلك الى اقصى حد • ولم يكن طبعهم فقط هو الذى دفعهم الى ذلك ولكن لغة الحديث الموجودة حولهم هى الدافع اذ كانت لغة مختلطة بربرية غنية الى أقصى حد ، لم تحذق أناقة الجملة المطنبـة ولا انسجامهـا • ولكنها متلونة ، حية ، متوثبة • ومن ذلك الزمن فان كل من دخل ميدان الكتابة أصبح من تلقاء نفسه أو مكرها ، « أسلوبيا » • وكانوا يحبون دائما الجديد فخلطوا الدخيل بالغريب القـديم وشغفـوا بالعـامى ، والالفـاظ الشعـرية والمجردات ، وجددوا اللغة بدون انقطاع بالاقتباس من كل جانب وبمضاعفة الحروف وتعويض الالفاظ البسيطة بالمركبة ، وارادوا جعل الجملة حية أخاذة فأضفوا عليها ألوانا من الاشارة والطباق ، والواقعية والتحذلـق ؛ وحـذفوا الروابط ، وبالغوا فى استعمال صيغ الكلمات المقتضبة ، وأبرزوا النعوت ولم يحجموا فى تجرئهم على تركيب الجملة ولا فى عنفهم بالنحو قصد الوصول الى

(*) ألا يلتقى الشابى بوصفه المعروف للطبيعة وتجاوبه معها ذاك التجاوب مع هؤلاء الكتاب والشعراء ؟

التأثير المطلوب • وهذه الاسلوبية المدعمة ، الغريبة والقوية معا ، سحرت واستحوذت الى أبد الآبدين على أذهان الأفارقة • ولقد أوجد « أبوليوس » الصيغة النهائية التي احتضنها مواطنوه فيما بعد سواء كانوا وثنيين أو مسيحيين • وهكذا فان الذي كان في الاول تكلفا وتصنعا أصبح بطول الزمن طبيعة : مما أدى الادباء بدورهم الى المساهمة في صنع لغة حديث مشتركة •

وقطع أبوليوس الصلة تماما بالتقاليد الكلاسيكية أكثر ممن سبقه من المؤلفين في القرنين الاولين من الامبراطورية وذلك بعنايته الخاصة بالاسلوب • فلقد كان الاسلوب عند عظماء الكتاب في أثينا وروما ثوبا فقط للفكرة : وفي هذا المعنى كان لليونان هذه الاشكال البسيطة ، الخفيفة الواضحة التي تتقولب على تموجات الفكرة • ووصل هذا العمل الفكري الطويل عند الاثينيين في شخص إيزوكرات (Isocrate) وعند الرومانيين مع شيشرون ، الى اكتشاف الجملة المطنبة التي تغطي في طياتها الواسعة كل مظاهر الفكرة • وبالعكس ، فان أبوليوس توخى في ذلك طريقة المعاصرين • إذ هو لا يريد التعبير عن الفكرة في حد ذاتها بأبعادها ولكن الذي يريد التعبير عنه هو الانطباع الفجئي الذي يحدثه شيء ما أو تفكير ما في مخيلته • ولهذا فهو أحرص من أن يقع في طيات الجملة المطنبة ؛ فالذي يصلح له ليس هو السير المنظم للتحليل المنطقي ولا الايقاعات الجميلة ولا الانسجام جملة بل هي الخطرات القاطعة ، والكلمات الجديدة الملونة والتراكيب الجريئة ، وكل ما هو فجئي، أخاذ بارز • فهي بالنسبة اليه ، **ثورة كاملة لا في الاسلوب بل في اللغة نفسها** ••• (*)

فليس هناك أكثر ذاتية في الظاهر من هذا الاسلوب المتعثر ، الغني بالالفاظ والالوان ، الطافر بالخواطر الحية والصور والنزوات الواقعية : هو أسلوب فنان عصبي ، عبد لخياله ، متفاوت في القيمة ، غريب جبار •• ورغم كل هذا فان أبوليوس سيكون مدرسة • فهو على ما هو عليه يجسم العبقرية الادبية لوطنه ؟ ولقد رأت افريقية نفسها فيه وهي معجبة ••• ورغم ان أبوليوس لم يظهر بمظهر كلاسيكي ، فانه أصبح بالنسبة لمواطنيه مسيحيين كانوا أو وثنيين ضربا من الروح الكلاسيكية الجريئة الاصيلة الحساسة ، الواقعية ، وهكذا فان الادب الافريقي سيبقى دائما راجعا الى أبوليوس •

(*) لعل ما في لغة الادباء التونسيين من انتساب الى خصائص لغة هؤلاء الافارقة هو الذي دفعني الى التفريق بين اللغة والاسلوب واعتبار التجديد لا في الاسلوب بل في اللغة وهو الذي سميته اللغة التجاوزية (راجع « الفكر » ـ السنة 14 ـ في جل أعدادها) •

كيف طور أغسطينوس الشعر اللاطينى ؟

إن الطريف فى نشيد القديس أغسطينوس هو نظمه المتسم بالجدة والغريب الى أقصى حد • قال أغسطينوس فى هذا الباب : « لقد نظمت نشيدا مكونا من مقاطع Strophes تبدأ حسب ترتيب حروف الهجاء اللاطينية الى حرف V وهو ما يسمى بالأبجدية • وهكذا حذفت الحروف الثلاثة الاخيرة ؛ غير أننى عوضتها بنوع من الخاتمة فيه تتوجه الكنيسة الى الخارجين بنداء حار • والترجيعة والمطلع اللذين أعدا للانشاد لا يحسبان مع الابجدية نفسها اذ هى تبدأ بعد المطلع • ولقد حرصت على أن لا أستند الى بحر من البحور خوفا من أن تدفعنى ضرورة الوزن الى استعمال عبارات غريبة عن الاستعمال الشعبى »• وتوضيحات القديس أغسطينوس ، وان كانت هامة فقد بقيت ناقصة ، باعثة على اليأس وبالخصوص فيما يتعلق بالايقاع ؛ ذلك أنه وإن صرح بوضوح عن إعراضه عن استعمال أى نوع من البحور فانه لم يقل لنا بم عوض البحر •

ومن حسن الحظ ، فلقد وصلنا القصيد كاملا الا بعض النقص • فهو يعد 288 بيتا بينما كان عدده الاصلى 291 بيتا • وكما أكده المؤلف نفسه فنحن نجد مقاطع أبجدية ، وترجيعة ببيت واحد ، ومطلع مماثل للترجيعة وخاتمة تعد من بين الابجدية فان الذى يبقى هو عشرون مقطعا لكل مقطع اثنى عشر تعد ثلاثين بيتا من دون ترجيعة • وباستثناء هذه العناصر الثلاثة التى لا بيتا • وهذه المقاطع العشرون المتبوعة كلها بنفس الترجيعة هى أبجدية : الاولى تبدأ بحرف A والثانية بحرف B وهكذا الى الحرف V • والذى لم يذكره أغسطينوس وهو الغريب فى الامر هو أن الابيات كلها مختومة بأصوات متوازية : فلقد توفق ببراعة تامة الى ان يختم كل بيت بصوت واحد وهو e أو œ أحيانا وكرر ذلك ما يقرب من ثلاثمائة مرة • واغرب من ذلك هو هيكل البيت نفسه • فليس فى البيت ، كما ذكره المؤلف ، ما يدل على وجود بحر أو عروض ما ••• وهو بيت مكون من ستة عشر مقطعا يقتصر على عدهم مثلما هو الشأن بالنسبة للشعر الفرنسى اليوم • ويحتوى على شطرين كل شطر يعد اثنى عشر مقطعا تفصلهما نوع من الوقفة Césure وفى كل شطر يحمل مقطع ما قبل الاخير دائما النبرة الموقعة •

ونحن لا نعرف عند القدماء ، مثالا يشبه هذا النظم • وبلا شك فان معظم عناصر النظم موجودة فى مواطن أخرى : فالمقطع والترجيعة موجودة عند الكلاسيكيين وفى أناشيد فيكتوران Victorin ، والترتيب الابجدى موجود فى الانجيل وعند كومودیان Commodien ، والوقفة وتوازى الاصوات • أو القافية Assonance موجود ايضا عند كوموديان وفى كتابات

عروضية ومقطع ما قبل الاخير الموقع نجده فى أناشيد ڤريڤوار (grégoire de Nazianze) ... غير أن الجديد فى النشيد هو الجمع بين هذه العناصر كلها والتوفيق بينها ووجود هيكل طريف غريب للبيت . ففى هذه المقاطع الابجدية ذات الترجيعة وفى الخاتمة أيضا يظهر البيت جديدا يعتمد على عدد قار من المقاطع ، وعلى قافية ، ووقفة ثابتة ، وشطرين متساويين مع نبرتين قارتين والجدير بالملاحظة هو وجه الشبه الكبير بين هذا البيت اللاطينى وبين البيت المستعمل فى اللغات المتفرعة عن اللاطينية [كالايطالية ، والفرنسية ، والاسبانية] وهو بيت يعتمد فى عناصره الاساسية على تساوى المقاطع ، والوقفة الثابتة والقافية أو ما يشبههما والنبرة القارة فى الشطر وفى الآخر ، فهل هذا النظم هو من خلق عبقرية أغسطينوس ليس لنا ما يؤكد ذلك . لكنه يظهر لأول مرة فى نشيد هذا القديس ولا يوجد فى القديم الا عنده وبهذا فهو يعد أهم مرحلة فى التطور الايقاعى الذى أدى الى نظمنا المعاصر .

ملاحظات : 1) بالنسبة للقسم المعرب العناوين من وضع المجلة .

2) القسم الذى يحمل عنوان : كيف طور اغسطينوس الشعر اللاطينى مأخوذ من نفس الدراسة المذكورة آنفا لكن فى الجزء السابع الذى خصص لأغسطينوس والدوناتوسية . St Augustin et le Donatisme

3) ليست هذه المحاولة إلا خطوطا أولية لدراسات أكثر دقة تقع فيها المقارنة بين خصائص الادب اللاطينى الافريقى وبين اشهر ادبائنا الذين كتبوا بالعربية .

الفراشة الشاعرة

شعر : أحمد المختار الوزير

بيضاء حامت ، بالضحى ، جناحها يأتلق
فراشة ، أو فلة ، أو النديف اليقق
أو بسمة سخية ، فرحى ، تبوح ، تصدق
أو أمل حلو السنا ، به النفوس تشرق
بشاشة يغنى بها الروض البهيج الغدق
شاعرة في صمتها ، أبين ممن ينطق
يشوقها ، في سبحها ، بنفسج وزنبق
ذاك له موعدها ، وذا له تستبق
وان ونت وقفتها ، أعجلها المنطلق

* * *

تروقها الالوان تزهو ، والبهار العبق
والظل والامواه ، من ينبوعها ، تندفق
وجدول كأنه ذوب الندى يختفق
أو كوثر سال به ، من النهار ، الفلق

* * *

لكم رأت خيالها ماج ، به ، المنبثق
كأنه النجم يرف ، والمياه الافق
يسمو ، يداني ، يرتجي ، يعتنق
يلهو ، هناك ، سادرا ، لحاظها يستغرق
فحومت ، ترنو ، تود لو به تعتلق
وأوشكت ، لو لم تفق ، يقضي عليها الغرق
لكنها شاعرة . هيهات . لا تستحمق
بين الضلال والهدى . يبدو لها المفترق

أ. م. و.
70 — 1 — 24

الشكل الفنى والواقع

بقلم : عز الدين المدنى

من « المآخذ » التى يعلنها المهتمون بالقصة التونسية الحديثة فى مختلف كتاباتهم اليوم « مأخذ » جدير بالعناية والرد عليه ، وهو قولهم : إن الشكل الفنى الذى يستخدمه القصاصون الشبان فى انتاجهم الحالى مستورد من الفن القصصى والروائى الغربى الحديث ، بل مأخوذ بحذافيره من أدب روب قرييى وجويس وفولكنر ودوريل ...

والحقيقة ، فان هذه النظرة الانتقادية تحتاج الى تعمق كبير فى معرفة الانتاج القصصى عند القصاصين الشبان ، والى استقصاء نزيه لمدى تأثر القصاصين الشبان بالقصاصين الغربيين المحدثين ، وبالتالى ، الى دراسة مستفيضة فى ميدان النظريات القصصية والروائية فى العالم اليوم .

ومن المؤسف ان يظل سوء التفاهم قائما بين المنتجين الشبان وعدد من المهتمين بشؤون القصة والرواية عندنا ...

وللمزيد من توضيح موقف الكتاب الشبان من قضايا الشكل الفنى فى القصة والرواية ، بعد تقديم بيان عام عن الادب التجريبى ، وفى سبيل تبيان اتجاهاتهم الفنية ـ فى خطوطها الكبرى ـ ومن أجل الكشف عن نواياهم تجاه الكتاب الغربيين ، نعرض على القارىء آراء نظرية نابعة أساسا من واقع القصص التى ينتجها الشبان اليوم على صعيد الشكل الفنى ...

* * *

إن الشكل لا يكون شكلا قصصيا أو روائيا فنيا ، وعلى قدر وافر من النجاح ، اى على نصيب كبير من التلاؤم بينه وبين المضمون ، ومن التمازج والتطابق بينهما ، بله الاتحاد الكلى المطلق الذى يصهرهما ، إلا متى كان هذا الشكل هو الواقع بعينه .

وإن الواقع ـ كما هو معلوم ـ ليس « بالحياة الحقيقية الواعية » كما يتصورها

ببداهة رجل الشارع فحسب ، وليس كذلك « بالعيش الملموس » كما كان يفهم ذلك الكلاسيكيون فى التفكير ، فقط ، بل إن الواقع ليشمل ذلك ليتجاوزه الى جوانب مظلمة كثيرة فى حياة البشر ، فردا ومجتمعا ، شخصية محلية ، وإقليمية وعالمية ، أخلاقية ولا أخلاقية ، فعلية ومفكرة ، خيالية وحسية ٠٠٠

وليس من جديد القول اذا أكدنا ان الواقع البشرى قد تعمق كثيرا ،وتشعب كثيرا أيضا ، بفضل الاكتشافات التى حققتها العلوم الانسانية وبالخصوص : علم تحليل النفس وفروعه ، وعلم الاجتماع واتجاهاته ، وتفكير نيتشة واتباعه من فلاسفة الوجود ٠٠٠ وكذلك بفضل الاكتشافات التى انجزتها والنظريات التي قدمتها العلوم الصحيحة وتطبيقاتها المعروفة ٠

وبالاضافة الى ذاك التعمق وهذا التشعب ، فان الواقع يتسم دوما بالتغير فى جميع مستوياته وصفاته واتجاهه ٠

ولقد تفطن الكتاب والفنانون والمفكرون فى القرن العشرين ، ولا سيما فى الشطر الثانى منه ، الى أهمية تغير الواقع وتجدده الدائم (أو أنهم تنبؤوا به !) فبنوا مدارس « المستقبلية » و « التكعيبية » و « التعبيرية » و « السريالية » و « البنائية » و « الشعبية » و « الاشتراكية » و « الارتجالية » ٠٠٠ وذلك اعتمادا على الواقع البشرى السابحين فيه ، واستلهاما من حقائقه الظاهرة والخافية ، وجدلية مع سكونه وحركته ، منزعهم فى ذلك أخذ صورة صادقة وحقيقية وصائبة له ، ليكثفوها فى شكل فنى ٠٠٠ والامثلة عديدة يجدها من اطلع على أعمال « بيكاسو » و « لورنس دوريل » و « بروطون » و « فريتز لانڤ » و أيزنشتاين » و « يونسكو » الخ ٠٠٠

إلا أن عملية أخذ الصور الصحيحة للواقع والتقاطها من تغيره الدائم هى ، فى الواقع ، عملية جبارة تجرى فى ابهام فى مدارك الخلاق الذهنية ٠٠٠

ذلك أن هذه الصور الملتقطة من الواقع ، يختارها الخلاق ، بل ينتقيها ويصطفيها بذهنه انتقاء واصطفاء فيهما الكثير من الخيال ، والحلم ، والرؤية ، واللاوعى ، والحيرة ، والاضطراب ، والغموض ، والوضوح أيضا ٠٠٠ فهنا يكمن سر الخلق عند الكتاب ، والفنانين والشعراء والمفكرين ٠٠٠ ومن هنا أيضا تبدأ مسيرة فنية يقطعها الخلاق شوطا شوطا لربط علائقه بالكون ؛ فيكون ذاك الربط بمثابة « الحلول » عند المتصوفة ٠٠٠

ومن هنا أيضا يكون الخلاق تكوينا الشكل الفنى ، ويكيفه ، بل يثقفه ،

ويصنعه الى ان يتوازن ، وينسجم ، ويتبلور ، فيتضح حتى للمشاهدة والعيان !٠٠٠

وإن لفى يوميات « كافكا » و « الزمان المستعاد » « لبروست » وأناشيد « لو تريامون » إشارات الى ذاك التكوين ودلالات عن تلك الصناعة ٠٠٠

واني لا أستطيع أن أذهب أبعد من هذا في باب توضيح العلاقات بين الواقع والشكل الفني من حيث النظريات الجمالية لا من وجهة النقد ، لان هذا المجال مكتنف بالظلمات ٠

* * *

الواقع هو الذي يغير الشكل الفني ويطوره

لا شك أن الكتاب والفنانين والمفكرين هم أول من يحسون الطوارىء التي تطرأ على الواقع البشرى فتغيره ؛ فهم في هذا المقام أشبه بتلك الابرة الرقيقة التي تسجل أخف الهزات الارضية ، وأقاصي محاورها ، وأبعادها في أعماق البحار ٠٠٠

فهم بذلك تحت وقع الواقع المتغير دوما ، وفي حيز تأثيره المغنطيسي ، وفي إطاره المتشعب ٠

ونحن نعيش في بلد تعاقبت عليه الحضارات ، وخطت أتلامه مختلف الثقافات ، ونحيا ظرفا تاريخيا كان أمسه القريب ظلما ظلاما ، واستعبادا للجسم ، وللفكر ، وللذوق ، واغتيالا للحرية ، وسعيا حثيثا لمحو الشخصية ، ومحاولة شنيعة لعزل المجتمع في ضيق المحلية ، فصار يومه انطلاقا للفكر نحو رحاب العالمية ، واحياء للشخصية ، وتحريرا للمجتمع من رواسب الاسترقاق ومن معطلات الانحطاط ، وبعثا أكيدا للقرائح والمذاهب والخلق ، ونزوعا مستمرا نحو السيطرة على المصير ٠

وإن الواقع البشرى ليتضمن في أعماقه تناقضات ٠ فلئن اتصف بالعصرية في سعيه الحثيث لدخول القرن العشرين ، فهو يتصف أيضا بالقدم في أغواره السحيقة ، ولئن نعت بالجدة في أساليب تفكيره السياسي ، فهو ينعت أيضا بالشيخوخة التي ترزح تحت وطأة الأمية ، والجهل ، والأوباء ، والتقاليد الفاسدة ؛ ولئن ظهرت الأموال ، والأناقة ، والنظافة ، والصحة ، فالبؤس ، والمسغبة ، والعراء ، والقذارة ما زالت بادية ، ولئن برزت مظاهر السيطرة على المصير ، فمفهوم القدر ما زال يعبث بعقول الجزء الأعظم من المجتمع ٠٠٠

وإن هذا الواقع البشرى لتشعب الطرائق ، وعر المسالك ، ضبابى الدروب .
فهو يعيش كلا على ثقافة هجينة بالنسبة اليه، بينما يقتبس منها مشاعله ليحظى بالمعاصرة ، بينما المعاصرة لا تقوم لها قائمة إلا اذا خدمها شعب ذو فكر صناعى لا زراعى ، وتفانى فيها مجتمع ذو تقاليد ثقافية لا انفصام لها ، وعادات حضارية لا انشطار بينها ، لها من العراقة ، ومن التلاحم القوى المتين الباع الواسع العريض ؛ بينما الفكر الصناعى لا ينبض بالانتاج إلا اذا جهزت تراكيبه العليا والسفلى ، ونظمت ، وتفاعلت ، بينما ...

والفنان فى هذا الواقع الخضم يسبح : فبيئته تقليدية بمعنى التحجر والتزمت ، وهو حديث التفكير ضارب الى السنوبيسم ، وأسرته عرفت الظلم ، والكَبْت ، والخصاصة ، والمرض ، والجهل ، وهو يطمح الى حرية فى جميع مظاهر الحياة ، وينادى بها ، فى يوم غدت فيه القيم عزيزة من جراء ما يستهدفها من الشكوك والاعتراض ، وصارت الدنيا فيه تميد بحكم القضايا الشائكة الناجمة عن الخروج من التخلف ، إذ أمسى ديكور الاشياء فيها شبه منظم ، ما إن استقر كذلك بضع سنين حتى يصبح منقلبا قلبا وقالبا مع تغيير أدوار الممثلين ؛ وصار العالم الذى ينزع الى التوحيد يتأرجح تحت أقدام الملايين من البشر بسبب قضاياه البركانية... وإن معلمى هذا الفنان يسمون « بيكاسو » و « موندريان » و « هنرى مور » و « لوكر بوزيى » و « نيتشة » و « هيغل » و « كافكا » و « بروست » أحب ذلك أو كرهه ! وان لغته جاءته عبر الدهور خماء من كتب الجاحظ ، وأبى حيان ، وابن المقفع ، وابن عبد ربه ... وإن الارضية العقائدية الراسبة فى أعماق شخصيته والتى يسند اليها العمود الفقرى فى أخلاقيته (Ethique) هى بمثابة الحصير المرقع والمهترى والمعفن !...

والفنان فى « العالم الثالث » عامة ، وفى العالم العربى خاصة ، كهملت أمس يتضور من الواقع ، ويتشبث بالممكن ، ويحن الى المستحيل ، وينزع بكل قواه الى البقاء ... إنه يعيش درامة الوجود !

فهذا هو الواقع الذى يعيش تحت وقعه الفنان اليوم ، ومن رسمه يستلهم شكله الفنى ، ويأخذه ، ويكيفه ، ويصنعه .

وهذا هو الواقع الذى يغير الشكل الفنى بحكم تجدد القضايا ، وتحول الديكور ، وتبدل أدوار الممثلين ، وهو كذلك يطوره ، لان الواقع ينتقل فى لحظتنا التاريخية وفى جهتنا الجغرافية وفى حيز انتسابنا ، ينتقل من الفطرة الى الروية ، ومن الخنوع الى حدة العزم والحزم ، ومن المرض الى الصحة ، ومن

الجهل الى المعرفة ، ومن البؤس الى كرامة العيش ، ومن الاستهلاك الى الانتاج ، ومن الزراعة الى الصناعة ، ومن ثقافة فرعية هجينة الى ثقافة أصلية ٠٠٠ وفي ذلك درجات ، وتلونات ٠٠٠

* * *

واقعنا غير واقعهم وشكلنا الفني غير شكلهم الفني

إذا كان للفنان وعى تاريخى للعصر الذى يعيش فيه ، وللواقع الذى يغوص فيه ، فهو لابد أن يضرب بمفهوم « التفتح » عرض الحائط ، هذا المفهوم الذى يقرع به آذاننا بعض الناس فى هذه الايام ٠٠٠

وهو مفهوم خرافى باطل ، ومشكل زائف لا قوام له من الصحة ، وإشارة الى عوز فكرى ، وذريعة للتلفيق الثقافى والترقيع الفنى ، ودلالة شاهدة على العجز ٠٠٠ وزيادة على هذا ، فان هذا المفهوم المصطنع يرمز الى عملية تعويض (بمعنى الاصطلاح فى علم تحليل النفس) يقوم بها بعض المثقفين فى بلادنا ، فيدعون أن الفن عالمى وأن الثقافة أممية وأن الفكر كونى ، كأنهم ينكرون خصائص الواقع الذى يعيشونه ، ومميزات المجتمع الذى ترعرعوا فيه ، وألوان السماء التى نشأوا تحتها ، كما يرمز هذا المفهوم الهش الى مفارقة (Aliénation) جذرية فى تكوينهم على كافة الدرجات والمستويات !

وأية حال أسوأ من حال المثقفين (بالاسم فى الحقيقة) الذين يقدمون الذرائع ، ويتصنعون الرفض ، ويتحصنون بالتعاليل ، ويختفون وراء تبرير عوزهم الثقافى ، بينما تقضى الثقافة مواجهة الواقع بشجاعة ؟ !

إنى لا أدعو هنا الى الانغلاق ، أو الى الانكماش ، أو الى الانطواء ، أو الى اضراب هذه الكلمات ذات المشاكل الهامشية الزائفة كذلك ، ولا الى الاقليمية والى الجهوية !٠٠ إنما أنادى الذين يهمهم شأن الثقافة والفكر والادب والفن فى البلاد كى يحللوا الواقع على ركائز ثابتة من خلال ما ينتجه الشبان من أدب ٠٠٠

إن الذى يفصل بين واقعنا ، وبين واقع البلاد الاوروبية ، هو ما أسميه « بنوعية القضايا » التى تفجر خصائص كل واقع ، وتميز بعضها عن بعض ٠ ومن البديهى ان لكل بلاد واقعا ، وان لكل بلاد مشاكل جوهرية خاصة بها ٠

وعلى سبيل المثال : كثير من القيم الغربية لا تنصرف فى بلدان « العالم الثالث » ، وكثير من قيم « العالم الثالث » ولا سيما البلاد العربية لا تتحول

الى عملة صعبة فى بنوك الفكر الغربية ؛ وذلك لاسباب حضارية وثقافية معروفة ٠

وعلى سبيل المثال أيضا : ان بعض الافلام الفرنسية ذات المستوى الفنى الرفيع لاتهمنا ـ نحن التونسيين ـ نوعية القضايا المطروحة فيها ، فنعزف عنها كل العزوف ، رغم أن أكابر النقاد الغربيين قد نوهوا بشأنها ، ونالت جوائز « دولية » هامة ٠ والملاحظة الاكيدة فى هذا الباب ان المثقفين التونسيين أنفسهم من ذوى التكوين الثقافى الفرنسى الصرف يرغبون كذلك عن هذه الافلام ، للسبب البسيط وهو أنهم يعيشون واقعا غير الواقع الفرنسى ٠

وليس هذا المثال شاذا ، بل هو عام فى معظم الامور ٠٠٠ لان مثل هذه الافلام تحصى بالعشرات بل بالمئات ٠ ويعرف ذلك جيدا من انخرط فى « نوادى السينما » أو هو من رواد قاعة « الفن السابع » بتونس العاصمة ٠

وإن اختلاف هذا الواقع بين واقعنا وواقع أوروبا مثلا ليؤثر التأثير الجذرى فى الشكل الفنى ويطبعه بطابع لا يمحى ٠٠٠

نعم ! نحن متأثرون بأعلام القصة والرواية فى الغرب ، فهم أساتذتنا ، ونحن تلامذتهم فى هذا المجال الفنى الحديث ، ولا نكران لذلك ٠ لكن ، آن لنا الأوان أن نستقل عنهم ، بعد ان جاريناهم طويلا وعميقا فى طريقهم من مطلع عهد النهضة الى الخمسينات تقريبا ، وآن لنا الأوان الا نتبع مختلف « الموضات » الفكرية التى يبتدعونها لانفسهم ولواقعهم ـ حسب تعبير ستاندال ـ والا نردد اصداء ايقاعاتهم ونغماتهم ، والا نسير فى طريقهم ، بل علينا ان نستفيد من هذه « الموضات » فنثرى بها أعمالنا ، فتكون لنا لقاحا لانتاجنا ٠

إن التحوير فى الاتجاه الفكرى والفنى فى « العالم الثالث » ولا سيما فى البلاد العربية لهو ضرورى ٠ فهو الذى سيكشف حتما عن أرضيتنا الفكرية ، وعن شخصيتنا الثقافية طال الزمان أو قصر ؛ وهو الذى سيحدد الدروب ويعبدها للمستقبل ، وهو الذى سيفجر فينا من جديد الينابيع التى كدرها الانحطاط ، وردمها أو كاد الاستعمار ، وهو الذى سيربط بين أوصال الزمان ٠٠٠

إن الواقع الذى نعيشه طافح بالمتناقضات الخصبة ، وإن الاشكال الفنية التى يستعملها الكتاب الشبان فى قصصهم بالخصوص لهى تجسيم لذلك الواقع وانعكاس حى للمتناقضات الموجودة فى صلبه ٠

على أن القضية لا تبقى ولا تمكث راكدة فى هذا المستوى من التفكير الجمالى . ذلك أنه لا بد أن يتطور الشكل الفنى فى شتى كتاباتنا ـ لا على حساب واقعنا ، وإنما جدالا وصراعا سجالا معه ، حتى يخلقه من جديد فتنصهر المتناقضات وتتعادل ، وتعجن هذه المتناقضات مع نظرة المبدع الخلاق الى الكون فتتوازن ، ويسمو الشكل الفنى الى مراتب عليا من الخلق .

ولقد اقترحنا فى صدد تناقض هائل يحز فى أنفسنا وهو يتمثل فى ملاحقة واقعنا بواقع غيرنا ، وبالتالى فى متابعة شكلنا لشكل غيرنا ، لقد اقترحنا فى بيان الادب التجريبى أن ندمج الفنون فى الآداب ، وان نقتبس من الاولى ما يكون فائدة عميقة للثانية ، وان نربط بينهما وثيقا . وعلى سبيل المثال : لو نستوحى من السينما الحديثة ، ومن التلفزة « لغتهما » المعروفة ، ولو نستعملها بمرونة ، وبحذق ، وبملاءمة ، فى انتاجنا القصصى والروائى ، فلسوف نطور الشكل الفنى عندنا أولا ونثريه ثانيا ، ولسوف يكـون هذا الشكـل ناطقـا باسم « العالمية » ثالثا .

وإن ننس فلا ننس ان الشكل والمضمون شىء واحد لا انفصـام بينهمـا فى الخلق .

* * *

قال لى روب قريبيى فى شهر نوفمبر 1968 : « إنى أعلق أهميـة كبـرى على التجارب القصصية والروائية فى « العالم الثالث » لانها ستطور الشكل الفنى فى العالم . وقد بدأت بوادر ذلك تبرز من امريكا الجنوبية ... »

ع. م.

كلمة

شعر : عبد العزيز قاسم

(لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم)

فِي شِعَابٍ مِنْ ضَلاَلاَتِي وَأَوْهَامِي الْقَدِيمَهْ
حَيْثُ لَمْ أَلقَ لَقَاحا لامَانِيَّ الْعَقِيمَه
قِيَمُ الْمَاضِي قَدِ اسْتَنْفَدْتُ مِنْهَا كلَّ قِيمَه
غَيْرَ حُبٍّ هَارِبٍ لاَذَ بِأَضْلاَعِي الاليمَه
فِي شِعَابٍ مِنْ ضَلاَلاَتِي وَأَوْهَامِي القَدِيمَه

* * *

اللَّيَالي الْبيضُ أدْرَى مِنْ فُؤَادِي بِفُؤَادِي
حَيَّرَتْهَا سَهَرَاتِي وَخَيَالاَتُ رُقَادِي
وَوِفَاق مُسْتَرَاب بَيْنَ شَكِّي وَاعْتِقَادِي
وَاجْتِهَاد مَالَهُ مِنْ حَافِزٍ إلاّ عِنَادِي
اللَّيَالي البِيضُ أدْرَى مِنْ فُؤَادِي بِفُؤَادِي

* * *

يُولَدُ المَرْءُ وَفِي أحْشَائِهِ بَذْرُ الْمَنُونْ
آلَة مَغْشُوشَة تَصْدَا عَلَى مَرِّ السِّنِينْ
عَطَب فِي ذَاتِهِ يَمْنَعُهُ مِنْ أنْ يَكُونْ
كَيْفَ يَحْيَا لَوْ تَخَلَّى عَنْ تَحَدٍّ أوْ جُنُونْ
يُولَدُ الْمَرْءُ وَفِي أحْشَائِهِ بَذْرُ الْمَنُونْ

* * *

أنَا لَمْ أومِنْ كَإيمَانِي بِفِعْلِ الْكَلِمَهْ
كُلّ أحْدَاثِ الْوَرَى تَذْهَبُ طَيّ العَتَمَهْ
إنّمَا آخِرُ مَا يَفْنَى نَشِيدُ الْمَلْحَمَهْ
وَلِذَا ألّفْتُ عُمْرِي مِنْ شَظَايَا نَغَمَهْ
أنَا لَمْ أومِنْ كَإيمَانِي بِفِعْلِ الكَلِمَهْ

* * *

كُلّمَا ضَجّتْ حَوَالَيّ طُبُولُ « الإلْتِزَامْ »
قَرَعَتْ سَمْعِي بِإلْحَاحٍ نِدَاءَاتُ الْغَرَامْ
وَأنَا أجْرَحُ صَوْتِي هَاتِفًا وَسْطَ الزّحَامْ
نَبْتَةَ تَشْقُبُ مِنْ تَحْتِ الثّرَى صَلْدَ الرّخَامْ
كُلّمَا ضَجّتْ حَوَالَيّ طُبُولُ « الإلْتِزَامْ »

* * *

كَمْ تَسَاءَلْتُ وَكَمْ خَامَرَنِي هَجْسٌ وَظَنّْ
حَيْثُمَا يُرْفَعُ سَوْطٌ كَانَ لِي ظَهْرٌ وَأذْنٌ
عَاتِقِي هَدّتْهُ آثَامُ الْوَرَى مُذْ كَانَ كَوْنُ
أنَا مَا قُلْتُ « أنَا » إلاّ وَكَانَ القَصْدُ « نَحْنُ »
كَمْ تَسَاءَلْتُ وَكَمْ خَامَرَنِي هَجْسٌ وَظَنّ

* * *

أيّ فِكْرٍ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ تُخُومِ الإبْتِذَالْ
وَقْفَةَ الْوَاحَةِ مَلّتْ مِنْ سَرَابٍ وَرِمَالْ
نَبْتُهَا يَنْمُو شَبِيهًا بِعَلامَاتِ سُؤَالْ
مَلأتْ رَأسِي « مَاذَا » وَ « لِمَاذَا » فَهْوَ خَالْ
أيّ فِكْرٍ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ تُخُومِ الابْتِذَالْ

* * *

خَطَرَاتٌ فِي الدّجَى جُنّتْ كَنَحْلٍ مُولَعِ
تَتَرَامَى فَوْقَ رَأسِي وَتَغَشّى مَضْجَعِي
فَأرَانِي أعْبُرُ الْحَشْدَ كَسِيرَ الاضْلُعِ
وَأنَا أمْشِي كَمَنْ يَمْشِي بِقَفْرٍ بَلْقَعِ
خَطَرَاتٌ فِي الدّجَى جُنّتْ كَنَحْلٍ مُولَعِ

ع. ق.

نبالغ في معاملة الاطفال باللطف

قصة ، بقلم : ريشارد بركير
تعريب : محسن بنحميدة

مساء الخير سيدى الاستاذ ·

قلت : كفى يا « توميس » ان لم تلازم الهدوء بعد دقيقتين أجعلك عجلة وهذا آخر انذار ·

لم يكن « توميس » وحده الذى يحدث الضوضاء فلقد كانت الحمى متملكة الفصل كله انما اخترت « توميس » ليكون عبرة لغيره وكان اليوم يوم ريح عاصفة والريح العاصفة لها تأثيرها فى الاطفال زد على ذلك أن أبا « توميس » كان قد تسلم ربحا وفيرا فى رهان سباق الخيل لكن كيف يكون المصير لو التمسنا للاطفال أعذارا ·

وترقبت مع ذلك ثلاث دقائق ثم قلت :

ـ واذن يا « توميس » فما هى نتيجة عملية الجمع ·

قال : أنا لم أبدأ بعد ·

قلت : حسنا ولا تعتذر بأنى لم أنذرك ·

وفى الحال جعلته عجلة ··· عجلة من المعدن القرمزى ذات عجلة مطاطية · فهدأ الفصل كما يقع دائما عند استعمال الصرامة واستغرقنا فى الدرس مدة نصف ساعة ثم دق جرس الاستراحة فأطردت جميع التلاميذ ثم قلت :

ـ كفى يا « توميس » اسمح لك أن تعود لصورتك لكن شيئا لم يكن فظننت أن « توميس » يبدى غضبه أما بعد حين فقد بدا لى أن الامر فيه خلل فذهبت الى المدير وقلت لـه :

ـ سيدى المدير انى جعلت « توميس » عجلة ولا أستطيع أن أعيده الى جسده فقال المدير دون أن يرفع نظره عن دفتره :

ـ وما الذى يدعوك الى العجلة ·

قلت : لاشيء لكن الامر مريب

قال : ومن هو « توميس » ٠

قلت : طفل قصير القامة ربعة شاحب اللون دائم الشخير ٠

قال : ذو الشعر الاشقر ٠

قلت : ذو الشعر الاشقر « ساندرسنون » أما «توميس » فله خصلات سوداء على هيئة أعشاش الطير ٠

قال : أتصوره فايتنى به بد ربع ساعة ٠

فصعدت مشغول البال الى قاعة الاساتذة وكان « طونقولو » يهيء الشاى فتذكرت أنه مسؤول فى نقابة المعلمين فقلت له : .

ـ يا « طونقولو » لو دفعت لك اشتراكى

فوضع فى هدوء آنية الشاى قائلا :

ـ فما الذى فعلت هذه المرة هل قذفت بطفل مسكين من الطابق الثانى ٠

قلت : لا شيء غير أنى لا أريد أتأخر كثيرا ٠

فأخذ منى النقود وأعطانى وصلا وضعته فى محفظتى بكامل العناية وأحسست بالاطمئنان ٠

وبعد عشر دقائق تناولت « توميس » ودحرجته الى مكتب المدير فقال :

ـ وأخيرا قد تسلمنا الادوات التى قررنا شراءها ٠

قلت : لا يا سيدى انه « توميس »

قال : آه حسنا لقد نسيت فدعه عندى وسأعيده الى الفصل عندما يصبح فى حالة جائزة للظهور ٠

فعدت اذن الى مكتبى وأجريت امتحانين دون أن يظهر « توميس » فقد يكون الشيخ قد نسيه مرة أخرى فقصدت مكتبه ثانية فكان فوق البساط جاثما على ركبتيه متجردا من رقبة قميصه وربطته ٠

قال : قد استعملت كل المحاولات ولا حراك فهل فعلت شيئا غير عادى ٠

قلت : لا يا سيدى انه مجرد عقاب عادى ٠

قال : الافضل ان تدعو النقابة فاطلب فى المصلحة الشرعية المحامى « ماكستاين » واشرح له الواقعة ٠

قلت : أو تظن اننا فى مأزق ٠

قال : أخشى أن يكون الامر كذلك فأسرع قبل أن ينصرفوا لتناول الغداء

ونجحت فى الحصول على الهاتفة ولما يزل « ماكستاين » هنالك فاستمع الى وهو يهمهم :

ـ أ أنت مشترك فى النقابة

قلـــت : نعـــم

قـــال : أدفعـــت اشتراكـــك

قلـــت : طبعـــا بكـــل تأكيـــد

قـــال : سأطلبك بعد ساعة اذ يبدو لى أنى ما عرفت قط قضية كهـذه

قلت : ألا يمكنك ان تعطينى فكرة ولو غير واضحة عن كيفية تمثل القضية

قال : نحن وراءك بالطبع فلك الاعانة الشرعية المجانية والضمانات وغيرها ٠٠٠ لكن ٠٠٠

قلـــت : لكـــن مـــاذا

قـــال : لكن لا أريد أن اكون مكانـــك

وعلـــق السماعـــة

وامتد ظهر اليوم دون أن يهتف « ما كستاين » ومل المدير « توميس » فجره الى الممر وعند الاستراحة اتصلت « بماكستاين » فقال لى :

ـ لم اتمكن من الاتصال بك لكثرة اشغالى فكل الامر متعلق بموقف الوالدين فان يقررا متابعة القضية يلزم أن أتصل بك لاراك فأمد لك يد المعونة

قلت : وفى انتظار ذلك ان الطفل لا يزال عجلة

قال : نعم نعم ٠٠٠ والذى انصحك به هوان تدفع بعد حين بالطفـــل الى منزل والديه فترى موقفهما فقد يريان فى ذلك ـ ولا غرابة ـ معروفا يشكر ٠

قلـــت : معــــروفـــا

قال : حدث أمر كهذا فى « قلاسكو » حيث قلب طفل آلة لقطع لحم الخنزير المصبر فكانت الام مسرورة لذلك غاية السرور فافعل ما قلت لك واتصل بـــى غدا صباحـــا

قلت : شكرا يا أستاذ ٠

وفى الساعة الرابعة عندما أقفرت الساحة أمام المدرسة دفعت « توميـــس » أمامى فلاحظت أنى ألفت الانظار فى الشوارع فقد سبقنى ذيوع الحدث فجعل

الناس الذين لا أعرفهم يبادرونني بالسلام وبلغ الامر بثلاثة أو أربعة منهم أن يخرجوا مسرعين من دكاكينهم ووصلت منزل توميس وكان حافلا بمناسبة الفوز في رهان سباق الخيل فنظر الى السيد توميس بعين بلورية وبعد أن أجهد نفسه ليجمع أفكاره قال :

ـ انه لاستاذ « تيدى » ٠٠٠ هيا اشرب معنا

قلت : جئت من أجل « تيدى »

قال : ليس الامر أكيدا فهيا اشرب كأسا

قلت : ان الامر خطير يا سيدى لقد قلبت ابنك عجلة و ٠٠٠

فقاطعني قائلا :

ـ هيا ٠٠٠ هيا اشرب كأسا

وشربنا على نخب الجواد المنتصر ثم على نخب السيد والسيدة توميس وقلت في أدب :

ـ وكم ربحت ٠

قال : أحد عشر ألف شلينا ٠٠ انه غنم اليس كذلك

قلت : وفيما يتعلق « بتيدى »

قال : آه ٠ مسألة العجلة هيا وسترى

وخرجنا الى الساحة فقصد العجلة وقال :

ـ أهذا هو

فأجبته بانحناءة رأس

فنزع السيد « توميس » نطاقا كبيرا كانت تشد اليه حمائله ولوى به في الجو فانبعث له صفير وقال :

ـ ان لم تعد في الحال يا « تيدى » الى صورتك الاولى سأجلدك الجلد الذى تعرفه

وفي الحال انقلبت العجلة الى « تيدى » واندفع الطفل مخترقا البستان هاربا وتوارى من ثقبة في السياج فقال السيد « توميس »

ـ انتهى الامر أرأيت فأنتم أيها الاساتذة تبالغون في معاملة الاطفال باللطف فهيا بنا الى شرب كأس أخرى ٠

تعريب : م٠ ب٠ ح٠

رسالة ابن فضلان بين التقرير السفاري وأدب الرحلة

(دراسة حضارية IV هـ / X م)

بقلم : أحمد خالد

المقـــــدمـــــة :

اعتنى أساتذة من أعلام الاستشراق فى الغرب منذ القرن الماضى بالأدب الجغرافى العربى للقرون الوسطى ، فنشروا جل نصوصه ودرسوه وأبانـوا قيمته ومدى أهميته، بعد أن أهمله العرب طيلة عديد من القرون ولم يخصصوا له مكانا فى موسوعاتهم الأدبية ٠

وما تعليل كبير اهتمام المستشرقين بهذا اللون الادبى إلا بتفطنهم لثـراء نصوصه التى يكتشف فيها الباحثون الخبراء بشؤون العالـم الاسـلامى فى القرون الوسطى معينا من المعلومات الدقيقة التاريخية والجنسية والأثـرية والاقتصادية والسياسية والدينية وغيرها مما يندر وجوده بمثل تلك الدقـة فى مصادر أخرى ٠ ويشتمل أدب الجغرافيا الوصفية على أنماط مختلفة منها بخاصة الموسوعات المعدة لكتاب الدواوين (Compendia) وكتـب « المسالك والممـالك (Itinéraires) التى ينتمى جل مؤلفيها الى الشيعة وبعضهم من الدعاة فيما يظن أمثال المقدسى مؤلف كتاب « أحسن التقاسيم فى معـرفة الأقاليم » وابن حوقل صاحب كتاب « المسالك والممالك » ويعرف أيضا بكتاب « صورة الأرض » ومنها تقارير السفارات ووصف الرحلات ٠

وقد اخترت تحليل رسالة ابن فضلان لأبرز أهميتها وأبين أنها تمثل لونا وسطا بين نمط أدبى جغرافى نجده عند مؤلفين أمثال ابن حوقل والمقدسى والبكرى وبين نمط آخر من الجغرافيا الوصفية وهو أدب الرحلات الذى يمثله ابن جبير أحسن تمثيل ٠ فكيف وقع هذا التحول من التقرير الى الحكاية ؟

والى اى حد تعتبر رسالة ابن فضلان وصف رحلة وقصة شبيهة باليوميات أكثر من أن تعتبر مجرد تقرير رسمي ؟ ذلك هو موضوع بحثي بالاضافة الى اعتنائي بمراكز الاهتمام الأخرى في رسالة ابن فضلان ٠

وينبغي قبل شروعي في دارسة الرسالة أن أعرض بايجاز حالة نصها كما وصلنا ، وأن أعرف بكتابته وبظروف أهداف السفارة التي شارك فيها مشاركة إيجابية وأضبط المسالك المتبعة والشعوب المزورة ٠

1) حالـــة النــص :

كيف وصلتنا رسالة ابن فضلان ؟ لم تعرف هذه الرسالة لمدة طويلة الا من الشذرات القليلة المدونة في المعجم الجغرافي ليـاقوت ، وهي التي نشرهـا المستشرق الروسي « فراهن » ودرسها منذ سنة 1823 ٠ وبعد قرن اى في سنة 1923 اكتشف احمـد زكي فالدى في ايران بمشهد نصا أطـول لتلك الرسالة ، فنشره وترجمه الى الألمانية وقدم له وعلق عليه في سنة 1939 ٠ وفي نفس تلك السنة ظهرت بلينينغراد طبعة مصورة لذلك النص ملحقـــة بترجمة روسية وتحقيقات قام بها «كوفلفسكي» تحت اشراف «كرشكفسكي»٠

ثم تعاقبت الطبعات والترجمات لذلك النص وقد ذكر « ماريوس كانار » جلها في مقدمة ترجمته الفرنسية الجيدة التي ظهرت في « حوليات » معهـد الدراسات الشرقية بالجزائر سنة 1958 ٠

وفي السنة الموالية ظهرت بدمشق طبعة أخرى علمية لذلك النص حققهـا الدكتور سامي الدهان ٠

غير أننا لا نملك النص الكامل لرسالة ابن فضلان فيعسر علينا الالمام التام بلونها الجغرافي الجديد لما في النص الموجود بين أيدينا من نقص اذ سلم من عبث الزمان نصفه فحسب أعني القسم الذى حكى فيه ابن فضلان تفـاصيل رحلة سفارته من بغداد الى بلاد البلغار ذهابا دون الاياب ٠

2) المـــؤلـف :

شخصية ابن فضلان يحيط بها كثير من الغموض فلم يكن السفير بـــل كاتب السفارة بيد انه يحتل مكان الصدارة في الحكاية ويبدو انه قد لعب الدور الرئيسي اذ كلفه الخليفة خاصة بتـركيز الاسلام والمذهب الشافعي المتبع ببغداد آنذاك في بلاد البلغار والاشراف على أعمال الفقيه والمعلم اللذين رافقا السفارة وهو الذى افادنا بتلك الارشادات ٠

وفى الامكان إدراك نفسيته بارسال أنوار كاشفة على شخصيته الغامضة من خلال النص ويفيدنا هذا النص أن ابن فضلان رجل يمتاز بكبير جد ويبتعد عن المزاح ويكشف عن ورعه وتمسكه بدينه حسب ما يظهر فى أحكامه على الطقوس الغريبة التى شاهدها عند الشعوب المزورة· وهو إذ ينفر منها ـ تكيفه عقيدته الاسلامية فيتقزز من العادات المنافية للأخلاق الاسلامية ككشف العورة والاتصال الجنسى المفضوح عند القبائل والشعوب الأجنبية التى كانت تعيش على الفطرة حياة بدائية · والكاتب أيضا طلعة شغوف بملاحظة كل دقيق وغريب ولا عجب أن يكون كذلك لأنه مكلف بكتابة تقرير مفصل عن الرحلة ·

3) ظروف السفارة وأعضاء الوفد :

ذكر ابن فضلان ظروف السفارة فى مستهل تقريره فأخبرنا أنها أرسلت تلبية لدعوة صادرة فى كتاب من ملك صقالبة حوض الفولغا «المش بن يلطوار» الى أمير المؤمنين المقتدر العباسى « يسأله فيه البعثة اليه ممن يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الاسلام ويبنى له مسجدا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة له فى بلده وجميع مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له » (1) وهم ملوك الخزر اليهود ·

وكان الوفد الرسمى يتركب من اربعة افراد هم سوسن الرسى مولى نذير الحرمى وهو رئيس الوفد وابن فضلان الكاتب الذى لعب فيما يظهر دورا رئيسيا فى البعثة كما يبينه قوله « فسلمت اليه (اى الى ملك البلغار) الهدايا له ولامرأته ولاولاده واخوته وقواده وادوية كان كتب الى « نذير » يطلبها » (ص 69) وثالث ورابع الاعضاء الاربعة فى الوفد الرسمى هما تكين التركى وبارس الصقلبى· اما دليل البعثة فهو عبد الله ابن باشتو الخزرى الرسول الى المقتدر من صاحب الصقالبة ·

وانضم الى البعثة فقيه ومعلم وغلمان ·

4) المسافة والمسالك المتبعة والشعوب المزورة :

يزخر النص بالمعلومات عن المسالك التى اتبعتها السفارة · فقد انطلقت من بغداد يوم الحادى عشر من صفر سنة 309 هـ الموافق لليوم الواحد

(1) انظر « رسالة ابن فضلان » تحقيق الدكتور سامى الدهان ·
مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ـ دمشق 1959 ص 68
والى هذه الطبعة أحيل دائما القارىء فى النص العربى لدراستى ·

والعشرين من حزيران سنة 921م ، واتجهت صوب بخارى فى خوارزم وهى اوزبيكستان الحالية وتوقفت فى مراكز عديدة وخاصة فى همذان والرى قرب طهران الحالية وفى نيسابور .

والتقى ابن فضلان فى بخارى بالجيهانى الوزير السامانى والعالم الجغرافى الشهير وكان ذلك اللقاء فى سبتمبر من سنة 921 م .

وسارت السفارة مع نهر جيحون ، فوصلت الى جرجانيا فى خوارزم قرب بحر آرال والقزوين وحلت بقباب قبائل الغز ثم تقدمت نحو الشمال فى اتجاه محلات قبائل البجناك الرحل حتى بلغت حوض الفولقا فنزلت عند قبيلة تسمى البشغرد ثم عبرت الفولقا ووصلت أخيرا الى بلد ملك البلغار فى اليوم الثانى عشر من المحرم سنة 310 هـ الموافق للثانى عشر من مايو سنة 922 م بعد أن مضى على انطلاقها من بغداد قرابة أحد عشر شهرا . وفى طول تلك المدة دليل على صعوبة السفر فى عصر ابن فضلان ولكن ذلك لم يكن عائقا لخلفاء بنى العباس عن ربط الصلات بملوك الأقطار البعيدة .

ويذكر ياقوت فى معجمه أن ابن فضلان حكى جميع ما رأى اثناء رحلته ذهابا وإيابا غير أننا لم نعثر على القسم الثانى من الرحلة حيث يصف الكاتب رجوعه من بلد البلغار الى بغداد وقصارى ما نعلم هو ان السفارة عادت الى عاصمة العباسيين فى ربيع سنة 923 م .

وقد مرت السفارة ببلاد فارس وبخوارزم وتركمانيا أو تركستان الحالية وكازكستان وناحية من اوزبيكستان وروسيا . وجميع تلك البلدان كانت تسمى يومئذ عند الجغرافيين العرب بلاد ما وراء النهر .

والشعوب التى زارها ابن فضلان فى السفارة الخوارزميون والقبائل الغزية وهم أتراك رحل والبشغرد والصقالبة وهذا الاسم كان يطلقه الرحالون العرب على الشعوب المقيمة فى الشمال الشرقى من اروبا ويطلقونه بخاصة على البلغار القاطنين بحوض الفولقا وعلى الروس .

II ـ دراسة الرسالة من ناحيتى التقرير الرسمى وحكاية الرحلة :

1) التقرير :

ما هو اللون الأدبى لهذه الرسالة ؟ إنها دون شك تقرير كلف ابن فضلان المبعوث فى سفارة من قبل الخليفة المقتدر ووزيره حامد بن العباس بكتابته ليسجل فيه ما يلاحظه أثناء مهمته . وإذا كان الامر على ما ذكرنا فهذه الرسالة تعتبر وثيقة رسمية مفيدة للخليفة العباسى ولادارته المركزية ويتميز هذا التقرير الذى أملته مصلحة الدولة بطريقة العرض وبما تضمنه من ارشادات هامة . فلندرس هذين الجانبين .

أ) المنهـــــج :

بين الاستاذ بلاشير فى كتابه « الجغرافيون العرب » أن أدب الجغرافيـــا الوصفية أملته مصلحة الدونة منذ بداية خلافة بنى العباس سنة 132هـ/750م عندما شعر الخلفاء بالحاجة لمراقبة جميع انحاء مملكتهم الواسعة وللاطـلاع على الاقاليم المجاورة لها • فأمروا أهل الاختصاص بجمع الأخبار المتنوعـــة التى تمكن السلطة المركزية من معرفة ما يقع فى المملكة وكانت هذه الاسباب العملية فى أصل ظهور الأدب الجغرافى فى صيغة تقارير اتخذت أشكالا مختلفة مع الأيام وطبقا لطباع المهتمين بذلك الأدب •

وهكذا نتبين نوعين رئيسيين متباينين فى الأدب الجغرافى وهما الموسوعات المؤلفة لكتاب الدواوين كما يمثلها قدامة بن جعفر فى « كتـاب الخـــراج » وكتب « المسالك والممالك » كما يمثلها ابن حوقل مؤلف « صورة الارض » •

وتعتبر رسالة ابن فضلان أيضا تقريرا أملته مصلحة الدولة فأشبه ذينك النوعين من المصنفات بعض الشبه • بيد أن ما يميز مؤلفى الموسوعات وكتب المسالك عن ابن فضلان هو أن بعضهم على غراره سافروا الى جل البلدان التى وصفوها فى كتبهم وسجلوا فى تقاريرهم ملاحظات مباشرة وأحداثا عاشوها بينما اقتصر صنف آخر من الحضريين الذين لم يزوروا الأقاليم الموصوفة مثل البكرى الأندلسى على اغتراف المعلومات من كتب من سبقهـم واعتمدوا فى مؤلفاتهم تقارير رسمية وروايات الملاحين والمسافرين التجار •

ولم يلتجىء الفريقان الى المزاح خلاف الجاحظ وابن الفقيه فى اعتمادهما طريقة مزج الجد بالهزل فى كتابين يحمـلان نفس العنـوان وهـو « عجـائب البلدان » • ففى نية الكتاب من الفريقين ـ وهم يكتبون للخليفة ولادارتـــه المركزية تقارير عن حالة المملكة الاسلامية أو القسم الموصوف من العالـــم أن يقدموا عملا علميا مفيدا • وكان القصد كذلك فى رسالة ابن فضلان الحريص مثل حوقل على تسجيل الواقع وما شاهده بنفسه ، فهو لا ينقل فى تقريره الأخبار المروية الا قليلا وعندما تفرضها لرغبة فيها التعليمات الرسمية وفى تلك الحالة يحترز المقرر ويتوقف ليتثبت فى صحة الروايات ويسأل عنها الثقات •

فرسالة ابن فضلان هى من هذه الناحية تقرير عام ومؤلف جامع فى وصف رحلة سفارة ومهمة رسمية وإن ما ورد فيها من إرشادات دقيقة مفيدة للادارة المركزية ببغداد يتعلق بمناخ البلدان المعبورة وبالمسافات والمراحل وبالمسالك ووسائل النقل وبالاتجاهات السياسيـة والدينية السائـدة عند الشعـوب المزورة وبأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية وبتصوير المجموعات البشريـــة خلقا وخلقا وبوصف العادات الغريبة ، وفيما يلى عرض لأهمها •

ب) تحليـــل التقريـــر :

ـ المسالـك ووسائـل النقـل :

تحتل المسالك مكانا هاما فى التقرير ويصفها ابن فضلان بكامل الدقـة مسلكا بعد مسلك طوال المسافة من بغداد الى « إتل » فى حوض الفولغا ولا يهمل ذكر المراحل التى على الطريق والمسافات بينهـا كما يفعـل أصحـاب الموسوعات الجغرافية المعدة لكتاب الدواوين ومؤلفو كتب المسالك ويظهر فى أسلوبه أحيانا جفاف أسلوب تلك الكتب عند تعداد المراحل فـلا تجـد أثـرا لمشاعره وارتساماته كما فى قوله : « وسرنا من بلد هؤلاء (يعنى الباشغرد) فعبرنا « نهر جرمشان » ثم نهر « أورن » ثم نهر « بايناخ » ثم نهر « وتيغ » ثم نهر « نياسنه » ثم نهر « جاوشيز » • وبين النهرّ والنهر ـ مما ذكرنا ـ اليومان والثلاثة والاربعة وأقل من ذلك وأكثر • (ص ١١٠) والانهار المذكورة ههنا هى فروع الضفة اليسرى للفولغا •

غير ان النزعة الغالبة على أسلوبه فى ذكر المسالك والمراحـل والمسافات هى القصصية فيكون الوصف حيا دقيقا واضحا ثريا بالمعلومات كما فى العينة التالية : « ورحلنا من الجرجانية يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذى القعدة سنة تسع وثلاثمائة فنزلنا رباطا يقال له « زمجان » وهو بباب الترك ، ثم رحلنا من الغد فنزلنا منزلا يقال له « جيت » وجاءنا الثلج حتى مشت الجمال الى ركبها فيه • فأقمنا بهذا المنزل يومين •

ثم أوغلنا فى بلد الترك لانلوى على شىء ولا يلقانا أحد فى برية قفر بغيـر جبل ، فسرنا فيها عشرة أيام ، ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديـد وتواصل الثلوج الذى كان برد « خوارزم » عنده مثل أيام الصيف ونسينا كل ما مر بنا وأشرفنا على تلف الأنفس (ص 66) •

ـ وسائـــل النقـــل :

ان أهم وسائل النقل التى استعملتها السفارة هى السبل المائية والابـل واستعملت قافلة السفارة أيضا الخيل والبغال والحمير والعجل أى العربات • وتجمد الأنهار فى بعض المراحل فتعبر القافلة على الجليد كمـا يبينـه النص التـــالى :

« فاقمنا بالجرجانية أياما وجمد نهر جيحون من أوله الى آخره • وكـــان سمك الجمد سبعة عشر شبرا ، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق ، وهو ثـابت لا يتخلخـل فأقـام على ذلك ثـلاثة أشهر » • (ص 83) •

وفى تقرير ابن فضلان عديد من المعلومات عن أنهار الأقاليم الشمالية وعن السبل الصحراوية ، وتضطر قافلة السفارة أحيانا فى مرحلة واحدة الى استعمال الابل والجعفريات التى يسميها ابن فضلان « سفرا من جلود الجمال » كما تبينه الفقرة التالية الدالة على تفاصل السفر والعبور :

« ورحلنا حتى صرنا الى « نهر يعندى » فأخرج الناس سفرهم وهى من جلود الجمال فبسطوها وأخذوا بالأثاث من الجمال التركية لانها مدورة فجعلوها فى جوفها حتى تمتد ثم حشوها بالثياب والمتاع فاذا امتلأت جلس فى كل سفرة جماعة من خمسة وستة وأربعة وأقل وأكثر ، ويأخذون بأيديهم خشب الحدنك فيجعلونه كالمجاديف ولا يزالون يجدفون والماء يحملها حتى نعبر • فأما الدواب والجمال فانه يصاح بها فتعبر سباحة ، ولا بد أن تعبر جماعة من المقاتلة ومعهم السلاح قبل أن يعبر شيء من القافلة ليكونوا طليعة الناس خفية من « الباشغرد » أن يكبسوا وهم يعبرون » • (ص 105 ـ 104) •

ـ الجغرافيا الطبيعية :

ويزخر التقرير بشهادات لابن فضلان تعتبر من معطيات الجغرافيا الطبيعية• ومن المفيد ان نلاحظ ان هذا المسافر الذى لم يألف قساوة مناخ البلدان الباردة وشدة قر الشتاء فى بلاد الصقالبة وفى أوطان الأتراك الغزية والبجناك والبشغرد قد سجل فى تقريره ملاحظات دقيقة عن الأخطار التى يواجهها رجل قادم من إقليم حار ومتوغل فى شمال شرقى أروبا وفى البلدان الاسيوية فى فصل الشتاء • ولا أدل على ذلك من الوصف التالى لمناخ خوارزم : « فأقمنا بالجرجانية أياما ••• فرأينا بلدا ما ظننا الا ان بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه ولا يسقط فيه الثلج الا ومعه ريح عاصف شديدة » • (ص 83) •

وإن مشهدا لنهر متجمد هو نهر جيحون ليلفت نظر ابن فضلان إذ لم يعهده من قبل فيطيل وصفه (ص 83) • ومثل هذا المناخ يستوجب اتقاء البرد بالنار ومن حسن حظ الناس كما يلاحظ ابن فضلان ـ « أن الله تعالى قد لطف بهم فى الحطب وأرخصه عليهم » (ص 83) وتلزم فى تلك الأقاليم الباردة ثياب سفر خاصة تضمن الدفء لمجابهة البرد بدرجاته النازلة تحت الصفر ويقوم ابن فضلان بتعداد تلك الثياب بكامل الدقة فى قوله : « كان كل رجل منا عليه قرطق وفوقه خفتان وفوقه بوستيز وفوقه لبادة وبرنس لا تبدو منه الا عيناه وسراويل طاق وآخر مبطن وران وخف كيمخت وفوق الخف خف آخر ، فكان الواحد منا اذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب » (ص 87 ـ 86) •

وكما أن لثياب السفر أهمية كبرى فى تلك الأقاليم فى الشتاء كذلك للزاد أهمية بالغة نظرا لقساوة الطقس وامتداد مدة السفر ، وها هــو ابن فضلان يفيدك بذلك فى معرض حديثه عن ظروف احدى المراحل : « وتزودنا الخبـز والجاورس والنمكسوذ (وهو لحم مجفف مالح) لثلاثة أشهر » (ص 86) ٠

وما أكثر ما يتبين القارىء الفطن فى المعطيات الجغرافية الوصفية الواردة فى هذا التقرير غاية انتفاعية ٠ فالجهة الملاصقة لصحراء قشمهــان مثلا هى من الأهمية بمكان لانها مدخل القفر وفيها تتزود القافلة وتحط الرحـال للراحة ولذلك يذكر ابن فضلان مراحلها بدقة كما يلى : « ثم رحلنا الى « سرخس » ثم منها الى « مرو » ثم منها الى « قشمهان » وهى طرف مفازة « آمل » فاقمنا بها ثلاثة أيام نريح الجمال لدخول المفازة » (ص 75)

والمدن الاسلامية التى تمر بها السفارة لم توصف فى التقرير ولا يستغرب ذلك من بغدادى عرف تلك المدن أو سمع عنها الكثير ؟ ولكن عاصمة مملكـة الخزر المتهودين على حوض الفلغا تستحق فى نظر ابن فضلان بصفته مسلما من القرون الوسطى تعريفا ، فيصفها فى هذه العينة : « وللملك الخـزر مدينة عظيمة على نهر « إتل » وهو جانبان ، فى أحد الجانبين المسلمون وفى الجانب الآخر الملك واصحابه ٠ وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز وهو مسلم ٠ وأحكام المسلمين القيمين فى بلد الخزر والمختلفين اليهم فى التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم لا ينظر فى أمورهم ولا يقضى بينهم غيره٠ » (ص 172)

ويبين أيضا أن مجارى المياه فى تلك الأقاليم المزورة سبل جيدة للمواصلات٠

الاقتصـــــــاد :

يظهر ابن فضلان اهتماما بالأوضاع الاقتصادية فى البلدان التى زارهـا اذ يسجل فى تقريره معلومات ذات اهمية كبيرة للادارة العباسية المركزيـة فيما يخص التجارة والصناعة التقليدية عند البلغار والخزر والروس ٠ فلـم يكن التجار وحدهم يختلفون على بلاد البلغار حسب ما ورد فى التقرير بــل كان اصحاب الحرف يؤمونها أيضا قادمين من آسيا الشمالية ، ففى بلاط ملك البلغار كان يعيش مثلا ــ خياط بغدادى ــ لم يبخـل عن مـد ابن فضـلان بارشادات عن البلاد ولعله كان عين الخليفة العباسى هناك : ويفيدنا الكاتب أن الجلود الصادرة من البلغار كانت نافقة مطلوبة لشهرتها (ص 128) وان الحنطة والشعير كثير وكذلك التفاح والبندق (ص 129 ــ 128) وأن البلغار

يقيمون مقـام الزيت والشيرج دهن السمك (ص 130ـ129) وأن عسلهـم وخشبهم كثير (ص 134)

التجـــــــــارة :

كانت التجارة فى حوض الفولڤا بايدى الخزر والروس وكانت تجارة الرقيق بصفة خاصة نافقة يتعاطاها الروس وفى « البلغار تجار كثيرون يخرجون الى أرض الترك فيجلبون الغنم والى بلد يقـال له « ويسو » فيجلبـون السمور والثعلب والأسود · » (ص 134) أما الخزر فقد امتدت مملكتهم وازدهرت فى القرن الرابع الهجرى · ويشير أمير خوازرم الى تجارة الحديد فى بلاد الخزر وروسيا · وفى الرسالة معلومات طريفة عن النقود المستعملة فى الاقطار التى زارها كما فى قوله : « ورأيت الدراهم ببخارى ألوانا شتى منها دراهـم يقال لها الغطريفية وهى نحاس وشبه وصفر يؤخذ منها عدد بلا وزن مـائة منها بدرهم فضة ··· ولهم دراهم آخر صفر ··· اربعون منها بدانق · ولهم أيضا دراهم صفر يقال لها السمرقندية ستة منها بـدانق » · (ص 79) ، وعن دراهم خوارزم يقول : « ورأيت دراهم خوارزم مزيفة ورصاصا وزيوفـا وصفرا ويسمون الـدراهم « طازجـة » ووزنه أربعـة دوانيـق ونصف » · (ص 82)

« علم الأجناس » والعـادات :

ويحتوى التقرير من جهة أخرى على مادة إتنوغرافية (من علم الأجناس) ذات أهمية كبيرة وهى ثرية متنوعة متعلقة بعديد من القبائل التركية الرحل التى تعيش فى آسيا الوسطى وبشعوب كانت تلعب زمنئذ دورا حاسما فى تاريخ أروبا الشرقية مثل البلغار والروس والخزر ·

ويعتبر ابن فضلان عالما من علماء الأجناس قبل ظهور ذلك العلم وتمتـاز ملاحظاته للبشر بالدقة والانتقاء وفى لوحاته النثرية رسم لنماذج بشريـــة منها صورة للرجل التركى فى خلقه وخلقه ، وهو « دميم الخلقة رث الهيئـة قمىء المنظر خسيس المخبر · » (ص 98) ومنها صورة للبجناك وهم « سمر شديدو السمرة محلقو اللحى فقراء خلاف الغـزية · » (ص 106) ومنهـا صورة للروس وقد شهد ابن فضلان على أنه لم ير « أتم أبدانا منهم كأنهـم النخل شقر حمر لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين ولكن يلبس الرجـل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه ويخرج إحدى يديه منه ومع كل واحد منهـم فأس وسيف وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرنا وسيوفهـم صفائح مشطبـة أفرنجية · ومن حد ظفر الواحد منهم الى عنقه مخضر شجـر وصـور وغيـر

ذلك Tatouage · (ص 150-149) ومنها صورة الخوارزميين وهم عند ابن فضلان «أوحش الناس كلاما وطبعا ، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير.» (ص 82) والكردالية « كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى دبر كل صلاة. » (ص 82) والباشغرد « شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقبالا على القتل ... وهم يحلقون لحاهم ويأكلون القمل ... »

وتشهد هذه المعلومات على عادات وأخلاق الشعوب التركية والصقلبية وعلى وضعها الحضارى المتخلف عن حضارة العراق زمنئذ وقد بلغت حضارته أوجها فى القرن الرابع الهجرى . وتكشف تلك المعلومات أيضا عن ضعيف أثر الحضارة العربية الاسلامية زمنئذ فى الأقاليم المزارة البعيدة عن عاصمة العباسيين قبيل وزمن زيارة السفارة لتلك الاقطار ؟

اللغـــــات :

ويكتشف الباحث فى تقرير ابن فضلان معلومات كثيرة عن لغات الشعوب التى زارها وفى النماذج السابقة إشارات مفيدة الى بعضها .

المساكـــــن :

ولا تعدم إرشادات ابن فضلان الخاصة بمساكن الأجناس البشرية التى عرفها أثناء رحلته فائدة . فالأتراك كان جلهم رحلا يعيشون فى القباب (ص 85) وكذلك البلغار فانهم شابهوا الترك فى بيوتهم لأنهم شبه رحل لم يشيدوا البنيان ولم يسكنوا المدن فى القرن الرابع « وكلهم فى قباب الا أن قبة الملك كبيرة جدا تسع ألف نفس وأكثر مفروشة بالفرش الأرمنى وله فى وسطها سرير مغشى بالديباج الرومى . » (ص 130)

أما الروس فانهم « يجيئوز من بلدهم فيرسون سفنهم باتل وهو نهر كبير ويبنون على شطه بيوتا كبارا من خشب ويجتمع على البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر . ولكل واحد سرير يجلس عليه ومعه الجوارى ... » (ص 151)

وأما الخزر ــ وهم أرقى فى التمدن من البلغار والروس زمنئذ ــ فانهم شيدوا بيوتهم من حجر وبنوا مدينة عظيمة اتخذوها عاصمة مملكتهم على نهر إتل اى على الفولقا . (ص 172)

القـــــــــذارة :

وثمت ظاهرة أخرى من عادات الشعوب التركية والصقلبية صدمت حساسية ابن فضلان الدينية فلاحظها بكل حذق ودقة فى غير ما موضع من تقريـــره وهى القذارة . فالأتراك الغزية « لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك . وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة فى الشتاء . » (ص 92) ، والباشغرد » شر الأتراك وأقذرهم ... يأكلون القمل يتتبـع الواحد منهم درز قرطقة فيقرض القمل باسنانه ».(ص 108 ـ 107) وعاين ابن فضلان غلاما من الأتراك الغزية كان مع القافلة يخدم وفد السفارة قد وجـد قملة فى ثوبه فقصعها بظفره ثم لحسها وقال لما رآه « جيد » (ص 108)

وأما الروس فقد كانوا أكثر قذارة من تلك الأجناس ولا أدل على ذلـــك من شهادة ابن فضلان عليهم فى قوله : « هم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام بل هم كالحمير الضالة ... » (ص 151) وقال عنهم فى فقرة أخرى : « ولا بدلهم فى كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم باقذر ماء يكون وأطفسه وذلك انالجارية توا فى كل يوم بالغداة ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعهـــا الى مولاهـــا فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط فى القصعة ثم يمتخط ويبصق فيها ولا يدع شيئا من القذر الا فعله فى ذلك الماء.فاذا فرغ مما يحتاج اليه حملت الجارية القصعة الى الذى الى جانبه ففعل مثل فعل صاحبــه ولا تزال ترفعها من واحد الى واحد حتى تديرها على جميـــع من فى البيت . وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها . » (152)

الضيـــافـة واللصـــوصيـة :

لاحظ ابن فضلان كرم بعض الشعوب التى مر بها كما لاحظ صعلكة بعض القبائل فى أقاليم بعيدة عن عاصمة الاسلام كان عديد من طرقها غير آمن . ومن غريب الأمور جمع الأتراك الغزية بين الكرم والسلب . (ص 72ـ70)

العقـــاب على السرقـــة :

يعاقب على السرقة بالقتل عند البلغار فـ « يقتلون السارق كما يقتلون الزانى . » (ص 134)

العـــراء والـزنـــا واللـــواط :

والعراء ظاهرة أخرى من العادات التى تثير اهتمام ابن فضلان بصفته مسلما

من مسلمي القرون الوسطى ، فيرفضه ويعبر عن تضايقه منه سيما اذا كان يعاين امرأة غزية لا تستر شيئا من بدنها عن أحد من الناس ، فانظر كيف يعبر الكاتب عن حيائه الاسلامي في حكاية ما جرى يوما بمحضره : « لقد نزلنا على رجل منهم فجلسنا وامرأة الرجل معنا فبينا هي تحدثنا اذ كشفت فرجها وحكته ونحن ننظر اليها فسترنا وجوهنا وقلنا « أستغفر الله » فضحك زوجها وقال للترجمان : « قل لهم تكشفه بحضرتهم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه هو خير من أن تغطيه وتمكن منه ·» (ص 92)

ولا ينجح ابن فضلان الفقيه المبشر في تعليم البلغار الحياء وفي حملهم على ستر عوراتهم اذ يستحم نساؤهم ورجالهم عراة : فاقرأ اعترافه : « ومازلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك · » (ص 134) لكن الأتراك الغزية والبلغار يتجنبون الزنا « ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني » و « ليس يعرفون الزنا ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقوه بنصفين · وذلك أنهم يجمعون بين أغصان شجرتين ثم يشدونه بالأغصان ويرسلون الشجرتين فيشنق الذي شد إليها » · (ص 93) ·

وليس الأمر كذلك عند الروس لأن تجارهم لا يتحرجون من جماع الجواري ورفاقهم ينظرون إليهم ، « فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر اليه · وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض وربما يدخل التاجر عليهم ليشترى من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضى أربه · » (ص 151)

وبصفته فقيها مكلفا بنشر الاسلام وتبليغ تعاليمه السماوية وأخلاقه السمحة لتلك الشعوب التركية والصقلية فان ابن فضلان يتقزز من عاداتها البدائية المتهورة وينفر من العراء المفضوح ويستغفر الله ويجتهد أن يتعلم النساء التستر من الرجال والقوم بعامة الحياء وتجنب الفحشاء ·

ويلفت نظره ميل الخوارزميين الى اللواط فلا يفوته ملاحظة ذلك في تقريره فيقول « وأمر اللواط عندهم عظيم جدا ··· ومن لاط قتل · » (ص96)

الــــــــزواج :

يحتل موضوع الزواج مكانا هاما في التقرير وكذلك النظام الاجتماعي ، واليك مثلا من عادات الزواج عند الأتراك الغزية : « ورسوم تزويجهم وهو أن يخطب الواحد منهم الى الآخر بعض حرمه إما ابنته أو أخته أو بعض من

يملك أمره على كذا وكذا ثوب خوارزمى فاذا وافقه حملها اليه وربما كان جمالا أو دوابا أو غير ذلك • وليس يصل الواحد الى امرأته حتى يوفى الصداق الذى وافق وليها عليه فاذا وفاه اياه جاء غير محتشم حتى يدخل الى المنزل الذى هو فيه فيأخذها بحضرة أبيها وأمها واخوتها فلا يمنعون من ذلك •

واذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامرأته اذا لم تكن أمه • (ص 93)

وانك لتجد تفاصيل أخرى مفيدة عن الحياة الزوجية لملك الخزر فى الفقرة التالية : « ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه يأخذها طوعا أو كرها وله من الجوارى السرارى لفراشه ستون ما منهن الا فائقة الجمال وكل واحدة من الحرائر والسرارى فى قصر مفرد لها قبة مغشاة بالساج وحول كل قبة مضرب ولكل واحدة منهن خادم يحجبها فاذا أراد أن يطأ بعضهن بعث الى الخادم الذى يحجبها فيوافى بها فى أسرع من لمح البصر حتى يجعلها فى فراشه • ويقف الخادم على باب قبة الملك فاذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة • » (ص 171)

عـــــلاج المـــــرضى :

لما كانت الادوية قليلة أو غير موجودة البتة فى تلك الاقاليم النائية عصرئذ كان المرضى يتركون بلا علاج يواجهون عللهم وأجلهم وكانوا يعزلون فى قباب عند الأتراك الغزية والباشغرد والبلغار فلا يقربهم الأصحاء ولا يزورونهم حتى يصحوا أو يموتوا • فعن البلغار ذكر ابن فضلان أن الرجل منهم « اذا مرض وكان له جوار وعبيد خدموه ولم يقربه أحد من أهل بيته ويضربون له خيمة ناحية من البيوت فلا يزال فيها الى أن يموت أو يبرأ وان كان عبدا أو فقيرا رموا به فى الصحراء وارتحلوا عنه » (ص 99) •

وعن معاملة الروس لمرضاهم ذكر الكاتب أن الواحد منهم اذا مرض « ضربوا له خيمة عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئا من الخبز والماء ولا يقربونه ولا يكلمونه بل لا يتعاهدونه فى كل أيام مرضه لا سيما ان كان ضعيفا أو مملوكا فان برىء وقام رجع اليهم وان مات أحرقوه • فان كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير • » (ص 154)

(يتبـع)

جسمك

شعر : محمد الحبيب الزناد

جِسمُكَ المُتَجَبِّرُ جُوعِي
جِسمُكَ المُتَبَرِّجُ تَجْوِيعِي
جِسمُكَ الجَائِرُ طَاعَتِي وَخُضُوعِي
جِسمُكَ الجَاحِدُ فَقْرِي وَحَاجَتِي وَقُنُوعِي

* * *

جِسمُكَ البُرْجُ قُدَّ مِنْ عَــاجٍ
جِسمُكَ الوَهْجُ سَوَّى إعْوِجَاجِي
جِسمُكَ المَوْجُ صَانِعُ الزُّجَاجِ وَالكِلْسِ
جِسمُكَ المَزْجُ بَيْنَ الجِنْسِ وَالجِنْسِ

* * *

جِسمُكَ الجَمْرُ جَفَّفَ جُرْحِي
جِسمُكَ الجِسرُ شَدَّ لِي صَرْحِي
جِسمُكَ الجَهْرُ فَاضِحُ سِرِّي
جِسمُكَ الخَمْرُ جَارِفُ عُمْرِي

* * *

جِسمُكَ الجَهْدُ فِي صَوْغِ لَحْنِي
جِسمُكَ الجِدّ فِي البَحْثِ الَّذِي يُضْنِي
جِسمُكَ الجَوْدُ فِي عَالَمِ الامْطَارِ وَالمُزْنِ
جِسمُكَ الجُنْدُ يَجِدّ فِي طَعْنِي

* * *

جِسمُكِ جَاسوس تَجَسَّسَ شُعُورِي

جِسمُكِ قَامُوس جَلَّى تَعْبِيرِي
جِسمُكِ كَابُوس أجْهَدَ تَفْكِيرِي
جِسمُكِ نَاقُوس جَلْجَلَ فِي مَصِيرِي

* * *

جِسمُكِ تَجْسِيمِي وَتَقْسِيمِي
جِسمُكِ تَقْوِيمِي وَتَنْظِيمِي
جِسمُكِ تَنْوِيمِي وَتَسمِيمِي
جِسمُكِ تَطْعِيمِي وَتَنْغِيمِي

* * *

فِي البَدْءِ كَانَ الجِسمُ
وَكَانَ بَدْءُ الجِسمِ بِالجِسِيمِ .

م. ح. ز.

تونس فى 5 فيفرى 1970

كلمات منثورة

بقلم : البشير المجذوب

• الطفولة ! ؟ أهي جنتنا المفقودة المثلى أم سعادة زائفة مزيج طيش وغباء ؟

• اجعل كل لحظة من حياتك ، إن استطعت ، في منزلة بين منزلتين الموت والحياة . ألا تحب أن تقضي العمر ضيفا غير ثقيل ولا مملول ؟

• خاصية « السهل الممتنع » أنه لا وشي فيه ولا حلى ولا « بلاغة » . يذاق من غير تعليق عجزا عن كل تفسير وتحليل حتى كأن قد انعدم الاسلوب وعرى الكلام وشف ونطق المعنى وأفصح فاذا هو كاللحن « يلج السمع مستمرا الى القلب بلا إذن ، لا ولا استئذان » .

• أغرق ماضيك في لجة حاضرك الوليد واركبهما مطية ذلولا .

• لئن كان الصمت والكلام بمثابة رئتي التفكير فالصمت أثرى والكلام أنصف وأشفى .

• نحن نموت ، شيئا فشيئا ، بموت أحبائنا فكلما فقدنا عزيزا تعطل جزء من الذات وانطوى .

• هناك لحظات تتميز فيها الذات وتتجرد ويطغى فيها « الأنا » ويجهل فاذا هو كل شيء ، هو الجوهر وما سواه – حتى أقرب الناس إلينا – عرض في المحل الثاني . لحظات لا يرف لنا فيها قلب ولا ينطلق خيال وإنما هي اللامبالاة المطلقة والأثرة المستفحلة حتى نزدري أنفسنا ونرثي لحالها بل ونشفق منها إشفاقا .

ب . م .

رحلة الصيف

قصة بقلم البشير خريف

معارضة صديقي مصطفى الفارسي

مسعود بن خليفة الاعتر رجل حمال ، في الخمسين من عمره ، يمسك في يديه. القويتين بروبطة مكومة ، وينزل ، بقدم ثابتة وقلب جذلان من الجبل الاحمر · اسند ظهره الى الوراء ، وقلص عضلاته ، وتركها تدفعه · والقوم فوقها ضاحكين،مرحين·حمد الله ان انتهى السفح،واستوت العجلة·وقد كانت ان تنحدر عليه بكل ما عليها من ادباش وزوجة ، وذرار وأم عجوز · ومن ورائهم ، كلب ابيض عقور ، مشدود الى حبل ، ولسانه يتدلى وعيناه تلمعان فطنة واخلاصا · يتبع اصحابه ، سعيدا بهذه الرحلة التي لا يدري ايان مرساها

الحر شديد · والشمس تحدق فيهم بكل عينها المشعة كأنها تقصد اذابتهم ·

عند عقبة باب العسل ، قام بحركة لولبية ، فوالاها بوجهه وانكب يدفع · ان لهم موعدا مع البحر

* * *

في مقص باب الخضراء ، دخل في واجهة خضار ، فتوقفت حركة المرور ، ريثما يلتقط ما تفيأ ، ويتبادل السباب مع صاحب الحانوت · وانتهى الحادث بتصالح وتسامح وعقد تجاري انتقلت بمقتضاه دلاعة كبيرة قاتمة الخضرة من النصبة الى ايدي ابنه الملقب بالتر ، وانتقل ثمنها من صرة العجوز الى درج التاجر ·

في نهج الحلفاء ، كادت الطرللى ان تدوسهم ، لولا ان حبست فجأة ، فحادت قطاطيها وسقطتا ·

واستمر ، يدفع احيانا ويجذب اخرى ، وطال الطريق وامتد ، العقبات ترهقه · فتبلغ روحه التراق · وتتوتر عضلاته ويتصبب من ذقنه الاحرش ، قطرات متوالية · وما كانت الدروب بامثل · يوليها ظهره ويتقبض بين ذراعيها ليحد من انحدارها ·

* * *

قلما تكتمل له رغبة في هذه الحياة الدنيا • وما رأى الاكتمال الا في عائلته فقد جعله الله سبحانه ، المسؤول الاول عن اسرة هو حلقة الوصل بين اسلافها المتمثلين في امه العجوز عيشة واخلافه المتمثلين في « طيرين وعـارم » اى ذكرين وانثى • وهو احسن ما تكون عليه الذرية حسب قواعد التنظيم العائلي • التر المذكور آنفا ، خمس سنوات • حفظ أليف واولاده • والفر ، ثلاث سنوات • بدأ يسب الدين • وصغراهم ضية ، بضعة اشهر ، تحبو وتكسر مواعين امها •

* * *

منذ اسبوعين ، طرق بابهم خاله الفرسيق • ودخل عليهم يمسك بيد العجوز وبالاخرى امتعته • فدخلت معهما من البلد نفس كتلك التى هاجت مع صبا نجد • وبدأ السؤال عن الاهل والاقارب وتذكر الحى والمضارب • ثم قال له ، في صوت حيي ، انه ضاق بعيشها :

- وليد اختى ، الحال حال الله • الحوازة هزوها ، وما لقيت بها وآين
- ياخى جاتكم لغادى التعاضضية
- يا وخـذى ! ما هو اللى عضاته يزيه •
- الخير ياسر • الحمد لله • تقعد حذانا

* * *

وحدثه عن النعيم الذى يتخبط فيه وان العيش ملقى في الطريق • ما عليك الا مشقة التقاطه •

- تلقط الشلاليق من الشارع تعيش • اما اللى يخدم يعطوه شهريته • ويزيـدوه « الملحـة »

وذكر له قربهم من غابة البلفيدير للنزهة ومن « المستوسط » للتداوى •

وهنا ، يجدر بالراوى التوقف لحظة لاحاطة القارى بمفهوم صاحبنا للغة • فهو من المخلصين لعروبتهم اخلاصا لا تشوبه شائبة • فلا ينطق الا بما يفهم ولا يعترف بقول يخالف ما اخذ عن العجوز عيشه ، وارثة مجد الاجداد • فالمنحة العائلية تصبح لديه « ملحة » اى شى قليل يزاد على الرزق فيحسنه والمستوصف يصبح « مستوسط » اى المركز الذى يتوسط منازل الحى ويقصدونه للتداوى وكذلك اذا جر الحديث الى العدالة واحكامها فيقول « تحكم عليه بسماح الدعوى » اى بعدم سماع الدعوى وهى ابسط واسلم من العبارة القانونية المركبة • وكذلك عربات « اللواج » يفهم ان المضاف اليه اسم فاعل

من لوج اى بحث • لان اصحابها ينادون طول النهار ـ هيا ، القيروان ، مدنين نابــل •••

بحثـا عــن الحرفـــاء •

قال الراوى : ووصف له فندق الغلة ، حيث يعمل • فواكه وانقال وخضر وابقال وذكر له البسباس :

ـ كيف الجمار عندنـــــا •
ويســر العيش •
ـ المحمصة تلقاها عند العطار حاضر باش ، مولى الحليب يجيك لباب الدار يدق ويعطيك ليترة ، اثنين واش تحب

ـ الحليب فى الصيــف ؟
ـ والزبدة والجبن بالسخط • هذه البلاد ربيعها ديمة •
ومرافق المنزل ورفاهيتـــه •
ـ خالتك أم الزين لا تحطب ولا تجيب ماء • كل شىء قريب ليدها • هاوينى الشيشمة • خطوتين • ماء حلو كالشهد ، وتطيب على بابور القاز ، لاحطـب لادخان • ونهار اللى تصبح ذارحة ، الطباخ عنده كل ما يقول الفم واللسان : يا لحم ، يا دجاج ، يا حوت ، يا شمنكة ، يا دوبارة • الكسرة ؟ شكاير فى القرانة ، اختار على كيفك • ها البراندة خذيتها بثلاثميا فى النهار نتفرشوها وفى الليل نحط اللوحات والجراية والجلود وتتغط بها ونبات لاسو لا سوية تكلمت ام الزين ، تزكى ما يذكر زوجها من محاسن عيشهم فى المدينة •

ـ مسعود ، غدوة هز خالك لدروج مبرى ، دروج تمشى وحدها •
ـ الحـــى •••
اضافـــــت
ـ ركبــه فى تاكسى
ـ أه ! الربااليهـــم •
لان بينه وبين هذه السيارات اللطيفة الخفيفة ضغينة سيأتى بيانها •
ـ ••• وترقد وتخل الباب محلول ، لا من يحيرك ولا من يجى على حالك • ها وينه البوليس يعس عليك •
ذلـك الوجه واما القفا فاليك هــو

* * *

كوخ وثلاثة صغار وامهم وكلب وبطالة كثيرا ما تطغى على العمــل • لان التاكسيات المذكورة استوعبت جل عمل الحمالة • فالقفة الثقيلة او الحقيبة ، عوض ان تستأجر لها حمالا ، فالتاكسى يحملها ويحملك • لكنه يبيت عـــلى

الطوى ويظهر النعمة والشكر · ولا عجب ، فهو من سلالة ذلك الذى كان يغدو على الميعاد ، يسبك شواربه ، وشفتاه تلمعان أداما وهو يتشاكى المغص ، زاعما ان خروف الغداء كان مفرط السمن · الى ان خرج ابنه ذات يوم يصيح ان القط اختطف قطعة الشحم التى كان يدهن بها فمه ، فعرف القوم ان مظهر النعمة تلك ، تخفى صبرا وتجلدا واباء · وانه يتحمل امره وحده · لا تسمع الدهر ، منه شكاة فقر ولا خصاصة ·

حضر التاى وفتح الخال بين ايديهم اصرار الزاد وفواكه البلاد : سويقه وغربوز وشيح وزعتر وترفاس · وكان بينها قصابة · فعزموا عليه ان ينفخ طرقا · ودق مسعود على بنديره الميزان فتنغم · وباتت رمال الجنوب تموج مع انغامه

* * *

تغير الهواء على الجده · واشتدت الوغرة فى تلك الايام من اوسو فانهارت صحتها واضحت تطلب العودة الى البلد وفضائها ورواحها ، وباتت تهجس بالصحراء ورملها وهوائها · وانشد لسان حالها مع المنشد :

لبيت تخفق الارياح فيه احب الى من قصر منيف

وما قصده لسان حالها بقوله « قصر منيف » كان ضيقا ، مظلما وسخا · سقفه من قصدير · تحط عليه الشمس بكلكلها · فيحمى هواؤه ويتبخر ويغدو فرنا يضيق الصدر · لكن ، وقد اشرفت على الضريح ، كانت تعلل النفس بان تبرد هذا القيظ بالانغماس فى الكوثر او غيره من بحران الجنة ·

فجزع مسعود جزعا كبيرا · انها أمه التى تحنو عليه ، والوحيدة التى بقيت تؤمن بجماله وشبابه ، وهى حافظة مجد الاجداد ، وفى ذكرياتها واقاصيصها عند السهر ، انس للاطفال وحفظ للماضى التليد ، الذى تمثله وتقدسه تقديسا حتى مصائبه من عواصف وبلايا وامراض فهى احس من مصائب الحاضر وعواصفه وبلاياه وامراضه وهى الوشيجة بينه وبين الخلود ، وهى سد بينه وبين الفناء فمادامت حية فلا يتجرأ الموت عليه · ثم ان لها منافع اخرى ، كأن يجربوا بها الفقاع الذى يأتى به من فواضل فندق الغلة ، اذا ما وقع لهم شك فى صلوحيته ·

* * *

ولبث فى حيرة نجاه حمى هذه الوالدة الثمينة ، الى ان كلفه احد الحرفاء بحمل اثاث من براكة قديمة متداعية بشاطىء رادس ، جاء قرار البلدية بازالتها وما كان ثبوتها حتى الساعة الا من ترددها فى السقوط يمينة او يسرة ، فخطر له ان يطلبه اخشابها مقابل اجره · اذ سنحت له فكرة فيها بر الوالدين

واحسان الى الابناء • وانقلب الى اهله مسرورا ، فبادرهم أن لهم ، منذ اليوم ، براكة على شاطىء البحر •

تحايت العجوز • واقسمت ان لا تموت الا بعد نهاية الصيف ، ما دام مسعود قد وعدها بقضاء مدة على رشم الماء •

* * *

ليال انقضت ، يتمتعون بالبحر وهم لا يزالون فى الجبل الاحمر ، يبيتون خارج الكوخ • ينظرون فى السماء : ذاك طريق التبانة وذاك الثور وتلك نجمة الراعى ••• يتحادثون عما تكون عليه خلاعتهم • ويطلقون العنان لخيالهم المجنح ويحتاطون للعوم • اما العجوز فانها تلبس جبة ابنها مسعود وتدخل الماء فمهما بلغت من السن فهى انثى ، وعليها ان تخفى المغريات • اشفاقا على الجنس الخشن واما الصغار ، فيدخلون عراة• والحذر ان يبتعدوا عن الشاطىء • فتطغى عليهم اللجة • فانها تعلم من حكايات الاولين ان الماء فى طوعها ما لم يتعد النهود واذا ما وصل هناك ، فانه يغلب ، والبحر غلاب • ونهودها تتدليان ، جلدتين فارغتين الى مستوى السرة • امتص ما كان فيهما من لباب ورواء اولائك • فهما الآن فارغتان ادتا وظيفتهما وانشأتا رجالا قد امتلؤوا صحة وحياة وانشأتا نساء منتفخات النهود ليغذين ، بدورهن ، وتتسلسل الادوار الى ما لا نهاية • وآلت على نفسها لا ان تصح فحسب ، ولكن ان تعينهم فى اشياء كثيرة ، فى قرقشة السمك الذى يصيدونه • وفى قليه ورعاية الصغار عند لعبهم فى الرمل ، على حاشية الماء • فى ذلك البرزخ الذى لا هو بحر ولا بر والموج يمسحه ويرتد كأنه سار يدفعه الشوق ويرده الخوف فى ايقاظهم فجرا ، عند ما تطفو الشمس من البحر لهبا يقطر ماء ، كحسناء تخرج من الاستحمام • فى حمايتهم من الدنفير وحماية ابيهم من عروس البحر التى يقال انها قرمة الى الفتيان وتكفيهم مؤونة غسلها فى البحر ، اذا ما ادركها ثمة الموت ، تشعر للبحر بالوهية غامضة ورثتها عن القدامى • فهو المطهر الاكبر لكل دنس • ولا يدنسه شيء • وبه الحوت الذى ينفى اصابة العين •

* * *

فى نهج رومة ، احدث مرور البرويطة خلافا بين اعوان الشرطة،فمن حسبها عجلة ذات حصان واحد • ومن حسبها راجلة • واحتدم الخلاف الى ان مرت سيارة اسعاف • فلمستها ، فوقع جانب من الادباش والطاسات والجلود ودجاجة كاركة ، تفرتت فراخها ، فانبثت العشيرة تبحث عنها • واستؤنفت المسيرة • وعند ساحة الاستقلال ، افتقدت العجوز فرخا اسود محببا اليها فنادت بالعودة للبحث عنه ، كى يصلوا على تمام وكمال وعافية الى حيث هم سائرون •

وجدوه لائذا بمسطبة عون المرور • فسمح لهم باخذه وساروا فى طمأنينة وأمـــان •

* * *

فى مستوى السكة بباب عليوة وحلوا • واشعل الضوء الاحمر ووقفـــت السيارات من ناحيتى الخط الحديدى وعجلته غائصه فى الكرين •

اضطرب الحمال وزوى صدره وجذب بقوة منه ، لكن حركات الاطفـــال وتزحلق العجوز اخل بتوازن العربة فمالت الى الوراء وارتفع الذراعان وهـــو معلــق بهمـــا •

وصفــر القطــار وظهــر •

وحش غضبان من الحديد والنار • عين طافئة فى جبهته ينفخ من منــاخيره العديدة • وحركة اسنانه ، من الاسفل فى صرصرة وطقطقة وبكبكة وتشتشة وشرر وبخار ولعاب • تهدد بدقدقة الحجارة والناس يطوى السكة ويتعــاظم نحوهم ، كالقضاء المبرم •

نزل من احدى السيارات رجل انيق ، ذو نظارات خضراء ، صافـــى التقاطيع ، دقيق الشفاه ، حازم الذقن ، له جبين فيلسوف فنان ، تخطى مرحلة الشباب ولما يدخل الكهولة •

ـ شـــوف ها الوحلـة !

ولاحظ للرجل المعلق ، ان نقل المؤخرة ، بما عليها ، ما كان ليعادل وزنـه وهو قريب من المغزل ، نقطة الارتكاز فى قضية الحال ، ثم ان تقاطع السكة وشقوقها من شأنه ان يعطل سير العجلة وربما تقع فى احد الشقوق ، كما وقع الآن واضـــــاف •

ـ توة لو كان خذيت من شارع قرطاج وجبت القنطرة توحلش ها الوحلة ؟ ياخى ما تعرفش اللى القنطرة هى الحياة

ـ قدر ربى سويـــدى

ـ توة قبل القنطرة آش ثمة ؟ ما نعرفوش وبعدها كذلك ما نعرفـــوش • هكاكة الحياة • قبل الحياة آش ثمة ؟ وبعدها آش ثمة ؟ ما نعرفوش •

ـ ما نعــرفـــوش •

ـ القنطرة قطعة من طريق ، لا بداية لها ولا نهاية

ـ يرحم افيمك

واشار عليه ان يسلك ، فى المستقبل القنطرة ، مهما يرى قنطرة ، ولو لم تكن فى طريقه فى هذه الرحلة وفى غيرها من الرحلات وفى كل رحلة ٠

ـ يا خى بلادكم ما فيهاش قناطر ؟

ـ بلادنا صحراء ، ما فيها وديـــان

ـ يلزم تحفروا الوديان وتجيبوا لها الماء بالذمة باش ترميو عليها القناطـر القناطر هى عنوان البلدان المتحضره ٠

ورفع جبينـــه الملهـــم وتابع ٠

ـ من عدم الى عدم ٠ معلقه ، لا هى متزوجة ولا هى مطلقة

ـ ياخى القنطرة تتـــزوز ؟

نطقـــت العجـــوز

ـ آ مسعود وليدى ، قله ايه بركه ٠ رانا اتخذنـا فصاح الرجل وهو يتدلى فى حركات المشنوق الذى يطلب الارض بقدميه ٠

ـ متزوزه ، متزوزه وباولادها ٠

عند ذلك ، جذبه الى الارض واعانه فى عبور منطقة الخطر ٠ ومـر القطـار يزلزل الارض ٠

حطوا يتنفسون الصعداء ٠ وبعد الاستراحة ، تفل الحمال فى يديه ومـال على البرويطة يدفع مرة ويجر اخرى ٠ وامتدت رجلاه فى خطو معتدل ، والعجوز تتقلقل فوق ركام الادباش واستؤنفت المسيرة فى سكون وجلال ٠

ان لهم موعدا مع البحر ٠

* * *

وصلوا الى البحر وانهمكوا فى احتلال البراكة وتأثيثها بينما تطوف العجوز وتهمهم بالدعاء للمنزل الجديد

اقبل عون من اعوان البلدية ٠ واعلمهم ان البراكة فى الطياح ٠ والاقـامة بها ممنوعة ٠ فاحتجت العجوز بقولها :

ـ يا وليدى ، البحر بحر ربى والارض ارضه ٠

ـ يا ميمتى ، المفاهمة ميش معاك ٠

– آوينه مفتاح ولدى · يعرف القوانين الكل بينك بينه تلطف مسعود مع العون وقال له انه ، فعلا ، مكلف بازالتها · لكنه يستسمحه فى الاقامة بهـا اياما قلائـل · فتبل العجوز جلدتها ويتنفس الصغار قليلا ·

تأثر العون لابتهاج الصبيان بالبحر وسألهم ، متجملا مداعبا :
– واش باش تلبس أمى الكبيـرة كيف تهبط للبحـر ؟ ننبهكم اللى المينى جيب ممنـوع ···

فعضه الكلب من عجزه عضة اظهرت لون كلصونه · فتنكر لهم وامرهـم باخلاء المكان حالا ·

واخذت الاصرار والجلود والطاسات ترجع ادراجها الى البرويطة · ووقعت الدلاعة ، وتفرشخت وتلوثت بالرمال ، فاكتفى التر بلحس اصابعه من مائها واكتفت العجوز بغمس اصابعها فى ماء البحر ، وكروا راجعين بنفس الحمولة ، مع اضافة عناصر مختارة من اخشاب البراكة لتنصب امام الكوخ ، بالجبـل الاحمر ويصطافون ، رغم الداء والاعداء ·

* * *

عند الشتاء ، اشتد البرد ، ذات ليلة من الليالى السود · وكذا ، ثلج بلادنا رمزى ، يسمط ولا يرى ·

فى الكوخ ، بطالة وبرد ومرض · طوف مسعود فى المدينة ، منذ الفجـر وعاد ، وفى جيبه نفقة لا تشبع ولا تغنى من جوع : رطل من المقرونة وعشرة قرامات تاى ومائة قرام سكر ·

لماذا التاى والسكر ؟ ذلك شأنه · اذا اشتدت الازمة ، يشن عليها هجوما معاكسا فيداوى الهم بالطرب · حتى يصير فى القليل كفاية وغنى · عمـلا بقوله ، صلى الله عليه وسلم « لا تتمارضوا فتمرضوا » · اذن فمن يتمارض يمرض · وعلى هذا القياس ، من يتطارب يطرب ·

الريح تعوى ، متناوحة ، زفزافة ، فى فجاج الكوخ · والجدة قاعدةمستقيمة على جلد ، تحضن ضيه ، وقد لفلفت جسمها الصغير ، المتفطـر حصباء ، فى خرقة حمراء · وانفها يسيل من زكامها الخـاص ، وهى تضمهـا وتعطيهـا من حرارتها الباردة ، والأم تقرض خشبة بالسكين والتر والفر يلتقطان الشظايا ويولعانها بالقش والورق وفحمات مرعوبة · وقد عجعج الدخان ، فغـم الكوخ وادمع العيون وخنق الانفاس احترقت الاصابع ولم يجـدوا للدفء معنى · السنة حادة من ثلجسقر تتداخل بين اسمـالهم · فى الـرقبة ، فى المنـاكب فى الاجناب ، فتليع ما تصيب من بشرة مقشعرة فاترة ·

دخل الحمال ، فدخل معه الانس والبشر ٠ أخذ مجلسه وسط العيال ٠ وبينما القدر يبكبك بصوت حنون وقراطيس التاى والسكر على المائدة ٠ عمد الى البندير واتى بتقسيم زندالى ردحا من الزمن ، ثم سأل الفر ماذا يريد ان يتعشى ٠ قال له :

ـ حلوة حلقوم يا بابا ٠

فدق دقات مطربة ٠ ورفع عقيرته منشدا :

يا والله حلقوم معطر
بالبندق واللوز كعب
دج
ددج دج
دج دج دج
ياكلوه وليداتى
دج ٠٠٠

وسأل العجوز ٠ فقالت :

ـ وليدى محمصة بالقديد والقرنيط والحمص والفول والحلباء تسخن فى ها الليلة الباردة

فدق البندير وانشد :

يا والله محمص سخونية
بالقديد والقرنيط
والحمص والفول جديد
دج
ددج دج
دج دج دج
تتعشاها اميمتى

وسأل الزوجة ٠ فطلبت دواء لابنتها اولا ٠ وقبل كل شىء فقال لها :

ـ الدواء تويجى ٠ اما العشاء ، العشاء ٠

ـ برة دجاجة مصلية ٠

فناولها اياها بانشاده :

الفرج للبنية
وللمرا دجاجة مصلية

فهمست له :

ـ بالسمن

فأعاد المقطع :

الفـــرج للبنيـــة
وللمرا دجاجة مصلية
بالسمـــن والافـــاج
والبطاطة مقلية
دج
ددج دج
دج دج دج
ونتعشـــوهـا جمليـــه

* * *

ولما طابت المقرونة وافرغتها فى المثرد وخاطبته ان اقبل ، غمزها ان اطعمى الصغار • واما هو فانه للنوم احوج • وما كانت تلك حقيقته وانما اشفق على العيال ان يبيتوا فى خصاصة • فهمت منه ذلك والحت ، قائلة ان لها كسرة احتفظت بها من ثلاث ليال خلت ، والرغيف اذا جف ، ثم اثـرد ، ينتفـخ ، ويتضاعف حجمه ، فيملأ ركنا من البطن ، ثم ان طعام الاثنين•••وطرق الباب

ــ مسعود بن خليفة الاعتر ، هنا يسكن ؟

الاسم اسمه ، والطارق يسأل الجيران • اطلت ام الزين ، ضيف • ضيف من البلد ، وعلامة ضيافته انه يحمل ادباشا على ظهره • حبـذا لـو يضللـه الجيران ! فى هذه الليلة ، عشاؤهم قليل من المقرونة وكثير من دق البندير • واما الضيـــف ••!

لو يطفؤون الفتيلة حتى يفوت • وغدا يقترض او يفعل الله فى ملكه ما يشاء قالت العجوز ، التى ، كثيرا ما تطلع على الغيب ، لقربها منه :

ــ هذاك الفرسيق خويـا

ــ باش نقابلـــه يارب !

وهم ان يندس تحت الفراش • فنهرته

ــ نوض وتعرض لخالك وافرح بيه • وما نبات كان بخير •

* * *

دخل خالى الفرسيق يبشرهم بعودة حوازتهم واذنت العجوز بالقرى فجمعوا عناصر البراكة واججوا بها نارا واحاطوا يصطلون ويمزلون لحم الفرخ الاسود الذى بلغ من العمر نحو الستة اشهر قد امتلأ « لحما وقد طبق شحما »

« وباتوا كراما ، قد قضوا حق ضيفهم وما غرموا غرما وقد غنموا غنما »

ب• خ•

واد ثريانه فى 5 جانفى 1970

أصوات

شعر : فضيلة الشابي

أصْوَاتٌ
أصْوَاتْ ...
تَدُقّ أعْمَـاقَ الارْضْ
أصواتْ ، رفضٌ للموتْ
أصواتْ ، رفض للصمتْ
رَفْض لصَمْتِ اللهْ ...

* * *

أصواتٌ تُسَايِرُ موكبَ الحَيرةِ
فِي الطَريقْ
حيثُ يلتقي الكبيرُ والصّغيرْ
حيثُ قلبي مُلْقًى على رَصيفٍ حَقيرْ
قَلبي الّذي يَحْمِلُ العَالَمْ ...

* * *

أصواتْ ...
لُغَةُ الارض ،
تحطيم للمَدَى
أصْوَاتْ ...
لغةُ الغَضَبْ
والرَجَاءْ ...

ف. ش.

بين يدى لغتنا العربية

بقلـم : رمضان لاونـد

كانت خزانة الحكمة العباسية تلك البداية الماجدة لسلسلة طويلة من المكتبات العامة والخاصة التى كشفت عن دور الكتاب الكبير فى صنع التاريخ الفكـرى عند العرب والمسلميـــن .

وبالاضافة الى خزانة الحكمة فى بغداد كانت هناك مكتبات الخلفاء الفاطميين فى القاهرة ومكتبات مثلها واكبر منها عند امراء الاندلس وخلفائها ومثلها أو أقل منها قليلا عند عدد كبير من الامراء فى الشمال الافريقى وبلاد الشـــام وبلدان الجزيرة العربية وبلاد فارس وما وراءها حتى بلاد السند .

لقد كان انشاء هذه المكتبات العامة والخاصة أشبـه مـا يكـون بالتيـارات المائية التى تدفقت على إثر انهيار السدود فراحت تنتشر شرقا وغربا تغمـر الوديان والسهول وتحيل القمم العالية الى جزر متباعدة . وازدهـرت حـرفة الوراقة وحقق الوراقون كثيرا من الكسب وتزاحم الناس على تعلم فن الكتابة والاستنساخ حتى كان الجهلة من التجار يتباهى بعضهم البعض الاخـر فى الاستكثار من الكتب وحيازتها وصنع الخزائن الغالية الثمن لوضعها فيها وفى هذه الظاهرة تعبير قوى صارخ عن أهمية الدور الذى لعبه الكتاب على امتداد القرون الاسلامية .

ولما كان الشىء بالشىء يذكر فان من الحق علينا أن نتحدث قليلا عن بعض القضايا المتعلقة بمادة الكتاب اللغوية .

نحن نتحدث بالطبع عن الكتاب العربى لا الكتب التى كتبت فى بلـــدان إسلامية غير عربية . فان مادة هذه الكتب رغم احتوائها لقضايا دينية اسلامية أو أفكار نابعة من الاداب العربية ونشاطاتها الثقافية المختلفة تبقى مادة اجنبية متأثرة بالادب العربى الاسلامى .

والكتاب العربى مكتوب بلغة عربية ذات دلالات خاصة تعارف القدماء والمحدثون من علمائها على اعتبارها ذات أصالة او عبقرية فريدة . وقد حدث أن اثير موضوع الدلالات او عبقرية الدلالات فى العربية فى مجلس من مجالس الادب فى الكويت وبتعبير اوضح فى ندوة عقدت فى جمعية الادباء الكويتيين

الموضوع هو كما يلى : هل أن هناك دلالات عبقرية خاصة فى اللغة العربية تميزها من دون اللغات الاجنبية التى نعرفها اليوم ولا سيما اللغات الاوروبية ؟

القائلون من المشتركين فى الندوة بوجود هذه العبقرية الخاصة فى الدلالات العربية يستعينون برأى العقاد فيرددونه فى المجلس على أنه القول الفصل فى الموضوع • ولكن آخرين من المشتركين فى الندوة يرون غير هذا الرأى ويعتقدون أن لكل لغة دلالاتها العبقرية وأصالتها فى الاداء بحيث لا تتميز فيها لغة من اللغات الاخرى •

وكان رأينا وسطا بين الفريقين • فنحن نؤمن بوجود هذه العبقرية الخاصة فى الدلالة عند كل لغة من اللغات الحية ولكن هذا لا يمنعنا من أن نسجل الملاحظات التالية :

(I) أن اللغة العربية هى من دون سائر اللغات الحية المعاصرة تبدو لنا اللغة الاقدم فى قياس الزمن • فهى لم تظهر كأداة تعبير عن حاجات الانسان وأفكاره وعواطفه منذ الف أو ألفى عام بل ظهرت منذ سبعة الآف عام حققت فى اثنائها سلسلة من التغيرات الذاتية فى ضوء معاناة التجربة والخطأ • واذن فهى لغة حضارة منذ بداية التاريخ المسطور المعروف من قبل الدارسين • والحقيقة ان ما يسمى باللغة السامية هو شىء لم يثبته التاريخ والوثائق بل هو اللغة العربية بالذات وليست اللغات المسماة سامية غير لهجات عربية هاجرت بها موجات بشرية من الجزيرة فانفصلت عن الجذر الذى هو الام والذى استمر رغم انفصال المهاجرين عنها يتطور بمرور الزمن •

فاللغات البابلية والاكادية والاشورية والسريانية والنبطية والعبرية وغيرها كانت كل منها فى حقيقتها صورة لمرحلة من مراحل تطور اللغة الام الموجودة فى الجزيرة العربية • ثم جمدت كل صورة من هذه الصور اللغوية المهاجرة على وضعها الذى كانت عليه ولم تلبث أن تخلفت عن ركب الحضارة الانسانية فتجاوزتها فى القرون اللاحقة لهجة بعد لهجة من حفيداتها التى كانت تخرج من الصحراء العربية هكذا اصبحت تلك اللغات أشياء ناووسية فقدت قدرتها على التحول والتطور واحتفظت بصفتها الوحيدة التى هى صفة الآثار القديمة اى أصبحت سجلا تاريخيا فى جملة من السجلات السابقة واللاحقة •

ويبدو أن القائلين بوجود لغة سامية أولى قديمة قد افترضوا هذا الوجود لانهم لأسباب تمت الى العصبية بصلة يرفضون اعتبار العربية أما وينبوعا لهذه

اللغات المهاجرة من الجزيرة على امتداد القرون · وبذلك اعتبروا العربية واحدة من اللغات المنفصلة عن الجذر الاساسى الام ·

ولعل أهم ما يرد دعوى المدعين بوجود جذر سامى غير العربية هو أن هجرة اللغة العربية التى تمت بظهور الدعوة الاسلامية لم تكن ثمرة فرع من أصل · بل هى ثمرة الاصل اللغوى نفسه للجزيرة · وليس أدل على ذلك من أن لغة الجزيرة العربية حتى يومنا هذا وبعد مرور اربعة عشر قرنا على خروج العرب المسلمين من اوطانهم ، ما تزال هى هى لغة القرآن الكريم الذى نزل بلسان قريش · لكأن قدرة الجزيرة على الاداء التعبيرى قد حققت ذاتها كاملة فى بداية العصر القرآنى ·

وما يقال من أن تقديس العرب المسلمين للغة القرآن الكريم هو الذى حال دون نشوء لغة جديدة فى الجزيرة العربية قول يرفضه المنطق السليم والعقل الموضوعى · انه لم يحدث فى تاريخ لغة من اللغات أن تقديسها عند الناطقين بها قد حال دون تخلفها حين عجزت عن التطور او ضعفت عن الاستجابة لتحديات العصور ·

اليونانية القديمة رغم ما حققته من الانتصارات فى مختلف ميادين الثقافة لم تقاوم تغيرات العصور وضغوطها · وكذلك اللاتينية التى لم تلبث حتى تلاشت كلغة حية رغم القداسة التى تميزت بها عن طريق الكنيسة الكاثوليكية ورغم الآداب التى أخرجها اصحاب هذه اللغة الاولون · تضاف هاتان الملاحظتان الى ما لا حظناه من تلاشى اللغات القديمة فى حضارات الشرق الاوسط رغم أن كلا منها قد لعبت دورا بالغ الاهمية فى حياة كل واحدة من هذه الحضارات ·

ولما لم تكن هناك لغة سامية غير العربية يمكن ان تكون ينبوعا لما يسمى باللغات السامية ·

ولما كانت اللغة السامية فرضية وصفها خيال فريق من العلماء المتأثرين باعتبارات صليبية معروفة ·

ولما لم يستطع هؤلاء العلماء أن يقدموا الينا نموذجا لهذه اللغة السامية رغم حماستهم فى البحث عنه ·

ولما كانت اللغة العربية هى الاداة التعبيرية التى وقف عندها التطور الجذرى فى الجزيرة العربية رغم استمرار الهجرات البشرية الصغيرة والكبيرة بعد

ظهور العصر القرآني • فأن الثابت أن العربية هى قمة الاداء فى هذه الجزيرة وبالتالى هى مستودع الدلالة الاصيلة لشجرة التعبير اللغوى فى منطقةالشرق الاوسط والشمال الافريقى وكل أرض ينطق أهلها بالعربية •

واذن فاللغة العربية تتميز بقسط من التجارب والمعاناة فى تطورها الذاتى لا تتمتع بمثله أية لغة من اللغات الحية المعاصرة فى الغرب والشرق •

أما فى الغرب فان أقدم لغاته الحية لهجات نابعة من اللاتينية اواليونانية القديمة اشتركت فيها عناصر لغوية حملتها معها الهجرات البشرية من الشمال والشرق الاوروبيين ولا يعود تاريخ الواحدة منها الى أبعد من القرون الوسطى•

لكن هذا لا يمنع القول بأن لكل لغة دلالاتها العبقرية الاصيلة مع فارق واحد لمصلحة العربية هو أقدميتها التى لا تدانيها فيها أية لغة غربية حية •

وأما فى الشرق فان أبرز اللغات المعروفة هى الفارسية • والمعروف أن الفارسية لغة حديثة نسبيا وهى غير الفهلوية القديمة الدارسة بالاضافة الى نصيبها الكبير من اللغة العربية التى انتزعت منها أصالتها التاريخية واستقلالها التام • وتفصيل ذلك عند علماء فقه الفارسية والمتخصصين بعلم اللغات المقارنة ثم تأتى اللغات الهندية والصينية واليابانية التى هى ابرز لغات الشرق الاقصى والتى تثبت النظرة السريعة اليها انها ما تزال فى مرحلة متخلفة جدا عن بقية اللغات الحية المتقدمة فى العالم المعاصر •

(2) اذا تقرر لدينا أن العربية هى أم ما يسمى باللغات السامية فان من الطبيعي جدا ان نلاحظ ظاهرة أخرى فريدة ليست فى أية لغة أخرى • الملاحظ ان الكلمة قد لعبت دورا اساسيا فى صنع الحضارات بل هى أحد عامودين ارتكزت اليهما كل الحضارات : الكتابة والدولة • وفن الكتابة لاحق لظهور اللغات • أما الدولة فهى اطار قانونى ادارى اخترعه البشر لتوفير الحاجات المادية وحسن توزيعها وللحفاظ على الامن والطمأنينة • هذا الاطار هو كما لا يخفى ثمرة ظهور اللغة أو فن الكتابة الذى هو ثمرة الوعى المجتمعى فاللغة هى المحتوى والدولة هى الاطار • واذن فان دور الكلمة فى العربية هو أقدم دور كما انها تعبير عن أقدم وعى مجتمعى • وهذا هو السر فى ان الانسان العربى قد وجد فى سحر الكلمة من القوة بحيث أنه اعتبر هذا السحر قمة الاعجاز فى الاداء والتأثير والتوجيه المجتمعى • وفى تاريخ النبوات ما يكشف عن أهمية وعى العربى لهذا الاعجاز اللغوى وسعيه اليه •

لقد كانت معجزات الانبياء الاولين كما جاء فى الكتب السماوية السابقة هى

معجزات مادية ٠ ومعنى ذلك أن وسيلة التأثير على انسان تلك العصور السابقة ليست هي اللغة باعتبارها قيمة فنية أو محتوى فكريا نابعا من عقل متطور بل هي الافعال المادية المحسوسة ٠

ولو بدأنا في استعراض تاريخ الانبياء لوجدنا نوحا عليه السلام نبيا داعية الى الله دون كتاب وكان سلاحه في مقارعة خصوم الدعوة معجزة الطوفان ٠ اما ابراهيم الخليل فهو رغم الصحف التى أوحى بما فيها اليه فقد تميزت دعوته بمعجزة وقوعه فى النار دون احتراقة بها ٠ وهكذا شأن النبيين موسى وعيسى عليهما السلام ومن بينهما وقبلهما من الانبياء رغم ظهور التوراة والانجيل ٠ فقد تميزت دعواتهم بالمعجزات المادية القارعة من فلق البحر بالعصا وتلقف عصى السحرة الفرعونيين وحبالهم بهذه العصا نفسها او احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ٠ وكان تأثير التوراة والانجيل تأثيرا تاليا فى أهميته لدور المعجزات المادية ٠

ثم يأتى عصر خاتم النبيين محمد عليه السلام فادا بالمقاييس تختلف وتصبح المعجزة التى تدهش وتعجب وتبهر هى معجزة الاداء اللغوى وبعبارة أخرى يتحول الاعلام الدينى من المعجزة المادية التى تبهر الحواس الى المعجزة التعبيرية فى شطريها الفنى والفكرى ٠ وقد كانت السباقة فى شطرها الفنى ثم لحق بها شطرها الفكرى من بعد ٠ وليس أدل على ذلك من أن القرآن الكريم قد كان فى سوره المكية تعبيرا اجتمع فيه سحر الاداء وروعة الصورة وقوة الخيال ثم ظهر فى سوره المدنية الوجه التشريعى منه مع احتفاظه بقوة الاداء المكية ٠

وليس هذا فحسب ٠ فان الوحى الالهى قد اعتبر الاداء القرآنى ظاهرة اعجاز تعبيرى تحدى قريشا ، أن يأتوا بمثل سوره أو بعض أيات منه ٠ ولم يستطع المعارضون للدعوة أن يجدوا فى هذا الاداء ثغرة ينالون بها منه ٠

وما يزال القرآن الكريم من دون أى كتاب فى العالم المصدر الدائم للتحدى القائم حتى اليوم ٠ وهى ظاهرة لا نجدها فى التاريخ الادبى لاية لغة من لغات العالم ٠

ولئن كان القرآن الكريم معجزة اعلامية تعتمد الكلمة الفنية والفكرة المؤداة بقوة وسيلة للتأثير على الانسان واثارة دهشته واعجابه وتحقيق قناعته فمن حقنا الزعم بأن هذه الميزة التى تتميز بها لغتنا تعنى أن للدلالة العربية من قدم التجربة ومرونتها وتحقيقها لاقصى اغراض البلاغة والفصاحة دورها الخاص من دون اللغات الحية التى تعاصرنا اليوم رغم اعترافنا بأن لكل لغة من هذه اللغات دلالاتها العبقرية المتميزة ٠

(3) شيء ثالث يلفت نظر الباحث المدقق فى يومنا هذا ويتحدد هذا الشيء بالسؤال التالى :

ما هو مصير العربية بعد ظهور مرحلة الانحطاط الحضارى لعدد من القرون المتأخرة فى حياة العربى ؟ وما هو مصدر التخلف الفنى والفكرى فى عـالم العربى المعاصر ؟

الجواب عن هذا التساؤل يمكن فى تقرير الحقيقة التالية :

انه لم يحدث فى تاريخ الشعوب أن أمة استطاعت أن تحتفظ بتراثها اللغوى بعد تخلفها عن الركب الحضارى العام غير الامة العربية • وهى ظاهرة لا نجد لها تفسيرا كافيا عند أهل الاختصاص اللهم غير القول بأن القرآن الكريم هو الذى حفظ لغة العرب وحال دون دروسها واندثارها رغم انهيـار الحضـارة العربية الاسلامية • وهو تفسير لا يقوى على مواجهة الوقائع والحقائق • فهناك كتب دينية بقيت حتى اليوم لكنها لم تستطع الحفاظ على اللغات التى نزلـت بها لان هذه اللغات قد عجزت بطبيعة بنائها عن مرافقة الركب الحضارى فى العالم • واذن فان الذى حفظ للعربية استمرارها أن الوحى القرآنى قـــد نزل بها بعد أن توفرت لها الشروط الصالحة لاستمرارها ولقدرتها الذاتية على الاستجابة لتحديات العصور •

« والله يعلم حيث يبعث رسالته وفى أية لغة ينزل وحيه » انه منطـــق المؤمنين دون ريب ولكنه منطق صحيح حين نتعرض لمناقشته فى ضوء الوقائع الحية • ان مجرد استمرار لغة القرآن حية حتى اليوم هو الدليل على صحة هذا المنطـــق •

وقوله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم : « انا نحن نزلنا الذكر وانا لــــه لحافظون » نابع من سنة الحياة التى هى من صنع الله والتى تعنى فيما تعنيه دوام ما هو صالح للدوام وبقاء ما تتوفر فيه شروط البقاء المرن القوى •

فالعربية باقية رغم تقادم الزمن ورغم عجز العربى عن متابعة حركة الاستنارة العالمية ، لانها تتمتع بقدرة ذاتية خارقة ولان القرآن قد نزل بها وحيا وهى على هذه الصورة من القوة والتكامل •

والثابت أن جهودا فائقة قد بذلت من قبل الغرباء والمتواطئين معهم من أبناء العرب بوعى او بغير وعى من أجل تغليب العاميات القطرية • واثبتت التجربة ان حظ هذه العاميات من الغلبة حظ يقارب الصفر رغم كل الخطط الموضوعة لخلق أدب عامى ومسرح عامى واعلام عامى وكتابة للعامية وحرف مستعار من اللغات اللاتينية • وما تزال المعركة محتدمة حتى يومنا هذا •

ولا يشك أحد فى أن الفكر المستورد قد حقق غزوات واسعة فى عقول النخبة من أبناء العرب المثقفين وبات فى حكم المسلم به عند كثرتهم الساحقة أن العربية عاجزة عن اللحاق باللغات العلمية الاجنبية بعد أن اثبتت التجربة عجز دعاة العامية عن إثبات تخلف العربية فى مادة العلوم الانسانية وضؤولة العاميات القطرية أمام عملاقية لغتنا الفصيحة • كما لا يشك أحد أيضا أن عصر الاستنارة الذى بدأ منذ قريب فى العالم العربى قد استطاع رغم كل المعوقات التى تطرحها وتصطنعها أجهزة اعلام اجنبية أن يكشف عن مرونة العربية وقدرتها على الاستجابة للتحديات وهى التى كانت حتى بداية هذا القرن مجموعة من المحسنات البديعية ومهارات فى تحقيق لعب كلامية •

وكانت الاداب التى ظهرت فى العقود الاولى من سنوات هذا القرن حتى الحرب العالمية الثانية برهانا على متانة اللغة العربية وحيويتها وقدرتها على اختصار المسافات التى تجاوزتها بها آداب اجنبية •

ومما يؤكد أن التخلف الذى نعانى منه اليوم هو من صنع عناصر بشرية تخريبية ظهور هذه الموجة الشديدة من الاستغراب الذى يرافقه استهتار مقصود بعمود الشعر والنثر وبقواعد العربية وافتنان فى اصطناع المبررات السخيفة لموجات التخريب تحت شعارات التقدمية فى الاداء والتحرر من القوالب وهى لا تعنى غير تغليب الجهالة وتسويغ الفوضى وتغذية الفوغائية فى الفكروالاداء

ومع ذلك فان ما يؤكد الانهيار المرتقب لكل هذه المحاولات هو الفشل الذى يرافق جهود الدعاة الى العامية والسطحية ، وتلاحق الازمات الذى يعنى فى منطق النظرة العلمية الحديثة نمو مقاومة داخلية شديدة فى صميم الوعى العربى واذا كانت هذه المقاومة لم تبلغ اغراضها المنتظرة فلانها فى حاجة الى عنصر الزمن من ناحية والى الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الملائمة من ناحية أخرى • وليس ما يجرى اليوم غير توكيد للفراغ الذى تعانى منه عقولنا وثقافاتنا • أو ليست النكسات والهزائم التى نسجلها منذ بداية المواجهة بيننا وبين الغرباء هى عنوان هذا الفراغ والآية على انحراف الخط التعبيرى •

واذا كان التباين بين اللغة العربية المتقدمة وبين العرب المتخلفين ظاهرة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها •

واذا كانت العربية حصيلة خبرات وتجاوب حضارية موغلة فى القدم تكاد تتصل ببداية التاريخ القديم للاستنارة البشرية •

واذا كانت اللغة العربية قد حققت خطوات تقدمية رغم الرجعة الشديدة التى اتصفت بها الاجيال العربية المعاصرة ·

واذا كانت قصة الاضاليل التى تناولت التراث العربى عقيدة وفكرا وأدبا قد عجزت عن ربط مصير اللغة بمآسى الهزائم والكوارث فى صميم الحيــاة القومية العامة لشعوب العربية رغم الترويج الشديد لالوان العاميات فى ألوان من أساليب التعبير والثقافات المستوردة ، فان الثابت بعد هذا كله أن لغتنــا العربية بما تحتويه من التراث ستحتفظ بمكانتها الخاصة وتقدميتها واصالتها حتى يستيقظ العرب على دورهم التاريخى الحقيقى ·

ولا غرابة فى هذا التقدير الذى نقدره وان كنا عاجزين عن تفسير استمرار العربية لغة متقدمة على أمتها العاجزة · ولعل تخلفنا فى ادراك القوانين الدقيقة لمعادلات التطور البشرى بعامة ، والعربى او الاسلامى بخاصة هو وحده الذى يدفعنا الى اعتبار التقدمية فى اللغة العربية دون الشعوب الناطقة بها ظاهرة مستعصية على التفسير المنطقى · فالاستعصاء على التفسير ناجم فى الحقيقة عن تعدد العوامل التى تكشف عن طبيعة المعضلة · ان منها العوامل التى اشرنا اليها قبل من مثل قدم التجربة الحضارية فى العربية ووجود القرآن الكريم وان منها عوامل جغرافية ذات طابع استراتيجى خاص · وان منها قانــون التناقض الذى يضع شرقى المتوسط وغربيه فى حالة تفاعل مستمر · كما ان هناك عوامل تتصل بالتكوين النفسى الجغرافى لشعب الجزيرة العربيـــة من ناحية والشعوب العربية فى الاقطار العربية الاخرى من ناحية ثانية · فالحاجة ماسة الى قدر اكبر كثيرا من التأمل والدراسة الاكاديمية لتسليط الضوء عــلى خلفية هذه الظاهرة القومية الخاصة ·

واذن فليست العربية كلغة هى مصدر التخلف لكــن المصــدر الحقيقى هــو الوضع الشاذ للشعوب العربية · هذه الشعوب التى ما تزال تتردد خائفـــة مذعورة من مواجهة الحقيقة واتخاذ المصارحة خطة لها ووسيلة · ان شأن الجيل العربى المعاصر هو شأن المصاب بعقدة نفسية مريضة أحدثت له حالة انفصام تعجزه عن مواجهة الواقع فهو يرفض الاعتراف بما يجرى حوله لانه يخافه وهو يؤثر اللجوء الى عالمه الخيالى الخاص بعيدا عن دنيا الحياة والاحياء ·

وقد يتساءل بعضهم عن السبيل العملية لخلق جيل ذى صفات غير الصفات التى نعانيها فى الجيل المعاصر ··· وقد يظن البعض الآخر ان السبيل الى هذا الخلق هى فى تصحيح أساليب التعليم وتدريس التراث الاسلامى · لكن الواقع

غير ذلك . الواقع ان تصحيح أساليب التعليم وان تدريس التراث الاسلامى هما النتيجتان الحتميتان الناجمتان عن تغير أخلاق الجيل لا مقدمة له .

ان أمة قوية ذات اخلاق ترتبط بشرف الكلمة ورجولة الفكر لا يتحقق وجودها ما لم تتحقق لها مواجهة عملية فى دنيا معركة الغداء والتضحية . ان قانون التغير فى مصير الشعوب هو الذى جاء على لسان الوحى الالهى فى قوله سبحانه وتعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وما دام أن هؤلاء القوم لا يجرؤون على تغيير ما بأنفسهم من الخوف والضراعة والسعى الى الحلول الهينة حتى ولو كان ذلك على حساب حياتهم وكرامتهم فقد قضت سنة الله فى خلقه ألا يغيرهم أبدا فيبقون حيث هم تطاردهم كوابيس الذعر المريض .

ان مواجهة العدو بعقيدة واضحة الابعاد عميقة الجذور هى وحدها بداية الطريق الى التغيير . فالشعوب لا تحقق نهضاتها بالدوران حول المعضلة بل باقتحام المعضلة والفكر الواقعى لا يتكامل وجوده بالاحلام المريضة او ما يسمى باحلام اليقظة . ان التراث لا يحمله غير ركب المواطنين الاحياء وان اللغة النامية لا تصبح اداة التعبير القوى الحافل بالحرارة والفتوة الا بالسنة الرجال والنساء ذوى الارادة المصممة على النصر . واذن فلن يكون التراث مصدر النتاج العبقرى للامة . ولن تكون اللغة مرآة لهذا النتاج ما لم يتحرر قومنا من وضع المستسلم ومن السلبية الروحية المريضة . ان أمة لا يستهويها العيش فى الخطر ولا تشدها الرغبة فى الانتصار على الذات ومجاهدة النفس الميالة الى مواقف الصفف والهزيمة هى أمة مغلوبة على أمرها .

وقد يظن البعض أننا نتجنى على معطيات المنطق السليم حين نعتبر التغير فى أخلاق العرب شرطا لتغير لغة الفكر ومحتوى الثقافة ولظهور الفاعلية فى دور التراث العربى الاسلامى . لكن التشابك فى طبيعة الحياة ، وهى سنة من سنن الخلق الالهى قررتها مباحث العلوم الانسانية المختلفة ، هو وحده الذى يؤيد صدق ما ذهبنا اليه من ربط مصير اللغة والتراث العربيين بمصير ظاهرة الكفاح العربى من أجل حرية صريحة عارية من مناورات الانهزاميين والمنحرفين والجهلة .

د . ل .

بنـــــاء

شعر : الطاهر الهمامي

1 – قصيدة عَمُوديّه
عَمُوديّة أفُقِيّه
نفّاثة في العُقَدِ
حمّالة للشرّ،
وجلاّبة للنّكَدِ
تُناصبُني العداء
تضربُ عليّ الحصارْ
تمنعُني من السّيْرْ
من السّيرِ بحُرّيّه!
2 – عجوز في الغابرينْ
غربلَتْ أعوامها التسْعينْ
تُحبُّني. تُحبُّني
تتَعَرّى اليّ.
تعرضُ عليّ...
تعْشقُني وتَسُبُّني
تدّعي أنّي
أنّي بلا هويّه!
3 – عَجَلاتُ مَطّاطْ
وعَرَبَه

للسَّوَاقِطِ وَالسَّاقِطِينَ وَالسُّقَّاطْ
ومَن سَقَطوا
واسَّاقطُوا
وَأَلِفُوا السُّقُوطَ وَالإنْحِطَاطْ

وأنَا وَأَنْتَ
والشَّارعُ يَدُوسُنَا
يَمشي علينَا
يَسُوقُنَا
يُلْهِبُنَا سِيَاطْ .

عَجَلاتُ مطَاطْ
وحَافلة عجوزْ
وشيءْ مَسْرُوقْ
وشيء مَهْزُوزْ
ونحن الخَاسرونْ
الضّاربونَ فِي الخُسْرِ أشواطْ !

ط . ه.

محاولة في تحليل شاعرية الشابي

بقلم : ابراهيم بـن مراد

— 3 —

من مكونات العبقرية لدى المبدع ، اثنان ، لهما أهميتهما القصوى لدى كل فنان عبقرى • وأول هذين المكونين ، الذكاء ، اى الذكاء المفرط المتفوق • ومن الصعب جدا ان نحدد هذا الذكاء ، أى أن نحيط بطبيعته•وذلك لاختلاف أحكام الناس على مستويات الذكاء لدى الافراد •• وما نستطيع ان نتبينه بيسر هو أن العبقرى انسان ذكى ، متميز الذكاء ، يفوق الآخرين بدرجة ذكائه • واذا اردنا التحقق مما اذا كان الشابى ذكيا أم لا ، فانه يصعب علينا كذلك اتخاذ حكـم قاطع ، لعديد من الاسباب • وأهم هذه الاسباب هو ما اشرنا اليه من اختلاف الناس فى الحكم على ماهية الذكاء ذاته ، واختلافهم فى شرح طبيعته • والسبب الثانى هو انعدام القرائن لدينا المثبتة ما اذا كان الشابى يتميز بذكاء بيـن أقرانه أم لا ، مثل أقرانه فى الدراسة ، او اصدقائه فى حياته العامـة ، اذ المظاهر السلوكية لدى الافراد تبرز ما اذا كان الشخص ذكيا أم لا • ولا أعتقد ان بعض الظواهر مما استطعنا التعرف عليه من سيرته وانتاجه ، كافيـة لاثبات ذكائه : مثل حفظه القرآن وهو صغير ، والقائه محاضرة « الخيـال الشعرى عند العرب » وما تضمنته من أفكار تفوق عمر الشابى عندما القاها ، وقدرته على ذلك التفكير الذى يفوق مستواه الذهنى • غيـر أنـه لا يمكننـا التسليم برأى فى هذا الشان ما لم تتوفر لدينا القرائن الدالة على ذكائه ـ المفرط لكن ظاهرة الذكاء هذه ليست هامة جدا بمقدار أهمية الظاهرة الثانية ، التى سنذكرها وعدم اهمية ظاهرة الذكاء كمكون من مكونات العبقرية عائد الى ان الذكاء « قيمة نسبية ومتنقلة ، تتفاوت درجاتها فى الفرد نفسه بين الطفولة والبلوغ ومرحلة النضج » • (28) فما هى هذه الظاهرة الثانية ؟

كنا قد لمسنا من خلال بحثنا للعلاقة بين « التطورات النفسية » لدى الشاعر ونوازعه اللاشعورية (فى الحلقة الثانية من هذه الدراسة) ، ما يلقى الضوء الكشاف على هذا السؤال • فقد رأينا ان تلك العلاقة يحدث عنها «الانفعال»•• نتيجة التفاعل بين عنصريها وهما تلك « التطورات النفسية » وكوامن الشاعر

(*) راجع الفكر ، العددان 4 و 5 ـ جانفى ـ فيفرى 1970 ـ السنة 15 •

وهذا « الانفعال » هو الذي يهمنا • لقد ظهر ذلك الانفعال في شعر الشابي وظهر كذلك في حياته • وقد كان بالطبع من آثار « عصابيته » • وهو انفعال كان حادا عنيف الحدة في الغالب ، كما تبينا ذلك سابقا • وذلك الانفعال الحاد يتمثل بدوره في نشاط نفسي كنا قد تبينا احد وجوهه ، وهو ذلك « التفاعل » • والوجه الثاني الذي سنبينه الآن يسبق ذلك التفاعل في الحدوث بل ان الوجه الاول الذي رأينا ناتج عن الوجه الثاني • وهذا الوجه هو مجموعة من الوظائف النفسية التي ينتج عنها ذلك النشاط النفسي • وهكذا ، فان تلك الوظائف النفسية انما هي من عوامل تلك التطورات النفسية كذلك• وبذلك يكون لها هي أيضا دورها الفعال في النشاط الابداعي : في عملية الخلق الفني ، ويكون لها أثرها على مقدرة الفنان الابداعية ، اجمالا • وهذه الوظائف في الواقع دقيقة لا يظهر أثرها في قوة ما تحدثه التطورات النفسية من الاثر • فاذا كانت التطورات النفسية تحدث أثرها على الشعور مباشرة ، فان هذه الوظائف تعمل من وراء قناع ، اى ان اثرها لا نتبينه الا فيما يفتح عنها من نشاط نفسي لاحظنا ان الانفعال يتمثل فيه • وبالتالي فان أثر تلك الوظائف لا نتبينه الا من خلال ذلك الانفعال • فما هي تلك الوظائف النفسية التي ينتج عنها النشاط النفسي ؟

هي (I) — مجموعة الوظائف الخاصة بالمعرفة والادراك • (2) مجموعة الوظائف الانتاجية وتتكون من الاصالة والطلاقة والمرونة • (3) وظيفة التقويم : وظيفة الحكم على قيمة موضوع ما او شيء ما • وهي وظائف مستقلة الواحدة عن الاخرى • الا أنه من الملاحظ أن هذه الوظائف النفسية قد تكون أصدق على عالم أو فيلسوف منها على فنان ، لان تلك المشكلات والمواقف التي تحتاج الحلول ، ولان وظيفة التقويم والحكم على المواضيع والاشياء ، هي من مهام البحاثة وليست من خصائص المنتج• واذا كانت هذه الوظائف مستقلة الواحدة عن الاخرى ، فان التي تعنينا بحق هنا هي الوظائف الانتاجية • وذلك لاختصاص الفنان بها ، أولا ، ولتوفرها لدى الشابي ، ثانيا • فهذه الوظائف اذن كما سبق أن قلنا ، ينتج عنها النشاط النفسي ، الذي يتمثل فيه ذلك الانفعال ، أى ان ذلك الانفعال ناتج بشكل أو بآخر عن تلك الوظائف النفسية التي لا تكون في ذات الشاعر وظائف مجردة عن التأثر ، بل لابد لها من أن تتأثر بمؤثرات أخرى حتى تكون لها فعالية أخرى وجدوى فيما يبدعه الفنان واذا علمنا ان ذلك الانفعال الذي ذكرنا انما يعود مباشرة الى التفاعل الموجود بين نوازع الشاعر اللاشعورية وتطوراته النفسية ، تبين لنا أثرهذين العنصرين النفسيين اللامباشر في تلك الوظائف النفسية • فعن تفاعلهما ينتج الانفعال الذي هو في نفس الوقت النشاط النفسي الناتج عن تلك الوظائف النفسية •

وهكذا نرى أن حياة الشاعر وانتاجه خاضعان لذلك الانفعال الحاد • وقد رأينا من قبل ان ذلك الانفعال انما يعود فى تأثره بشكل او بآخر الى عصابية الشاعر ، أو بعباره اخرى الى مرضه فى مستوييه النفسى والوجودى • واذا كانت العبقرية ، كما عرفناها ، ذكاء ونشاطا نفسيا ، أى ذكاء وآنفعالا ، وهو ذكاء متفوق وآنفعال حاد ، ولا شك أيضا فى أنهما يتأثران بما لدى الفنان العبقرى من عصابيه ، يتبين لنا أن تلك « الظاهرة الغريبة •• فى شاعرية الشابى لم تكن مظهرا من مظاهر الجنون ، انما كانت شكلا من أشكال صحة العقل : دلالة من دلائل العبقرية لديه • واذ كان جانب من هذه العبقرية يدين بوجوده الى مرض الشاعر – على مستوييه – فانه يمكننا ان نتساءل : كيف ظهر هذا المرض فى شعر الشابى ؟ او بعبارة أدق ما هى آثار ذلك المرض – منشط عبقريته الرئيسى – فى شعره ؟ وهو سؤال يفضى بنا الى سؤال آخر أعم : على أى مدى برزت تلك العبقرية فى شعر الشابى ؟

اذا أردنا ان نعرف أثر ذلك المرض فى شعر الشابى ، الاثر العام ، قلنا انه جعل منه شاعرا رومنتيكيا ، اذ ليس من السهل ان يكون الشاعر رومنتيكيا • بل كم هم الشعراء الذين يعدون فى عداد الشعراء ، وليسوا من الرومانتيكيين فى شىء • وما ذلك الا لان رومنتيكيتهم قائمة على أساس واه • فالرومانتيكية الحق ليست مظهرا او اتجاها أدبيا فحسب ، بل هى حالة من حالات الحياة التى يعيشها الناس ، هى حالة تقوم عليها حياة الشاعر ، قبل أن تكون مذهبا أو اتجاها يقوم عليه انتاجه • فلرومنتيكية الشاعر جذور فى حياته الخاصة ، والا فهى الاصطناع والزيف والتكلف ، ولقد كانت رومانتيكية الشابى ذات جذور فى حياته الخاصة ، وتلك الجذور هى وليدة ذلك المرض – كما أشرنا – العصابى – النفسى – والوجودى • واذ كنا قد تعرضنا الى اثر العصابية فى حياة الشابى وفى انتاجه فاننا سنتعرض الآن الى أثر هذا المرض الوجودى فى حياته وفى شعره خاصة ، كما وعدنا بذلك• وهذا المرض قد سمى فى القرن التاسع عشر بمرض العصر لدى الشعراء الرومانتيكيين (le Mal du Siecle) وكانت الرومانتيكية فى جوهرها هى الاحساس العميق بهذا المرض • هى ذلك الشعور الدقيق العميق فى النفس ، البعيد الاغوار فى الذات ، بأن العالم الذى نعيش فيه عديم الصلاحية لنا بما فيه من مكان يقيدنا وما يرتبط به من زمان يحد من قوانا ويشعرنا بعبوديتنا وتفاهتنا • فنحن فى حالة تعمق من احساسنا بالتعاسة وتكثف من شعورنا بالشقاء الى حد الانتحار احيانا • وعن ذلك الاحساس وذلك الشعور تتولد حالة وجودية تلازم حياتنا فتطبعها بالتذبذب والحيرة القاتلة والشعور بعدم الرضى والاحساس بانعدام الطمأنينة • الا أن حالة الفنان تكون دائما – والشاعر خاصة اكثف سوادا وأشد حدة ، وذلك

لما يمتاز به عن سائر الناس من رهافة الاحساس ورقته ودقة الشعور وحدته. ونحن نذكر دائما البيت الذى قاله الشابى معبرا به عن « مأساة الفنان » :

« والشقـي الشقـي من كان مثلي   في حساسيتي ورقة نفسي » (29)

تلك الحالة الوجودية التى نعانيها فى ساعات « ضيقنا » ، والتى يعانيها الفنانون بالخصوص ، كامل حياتهم تقريبا ، هى ما نسميه بالقلق الوجودى (L'Angoisse) فما هو القلق الوجودى ، وكيف ظهر لدى الشابى ، وما هى بواعثه لديه ؟

يقول العالم النفسانى ، الفرنسى ــ بول ديال (Paul Diel) فى كتابه ــ الذى سنعتمده فى تحليلنا لهذه الحالة ــ « الخوف والقلق الوجودى » (La Peur et l'Angoisse) : « أن تحيا ، يعنى أن تحس ، وأن تحس يعنى أن تتذبذب بين حالة من الشعور بالرضى وحالة من الشعور بعدمه ، وهاتان الحالتان المتناقضتان تظهران على الصعيد البشرى فى شكل احساسين واضحى الاختلاف . وهما القلق الوجودى ، والطمانينة » (30) فالحياة اذن مقترنة بالاحساس . فمن لا احساس له يعد بطبيعة الحال من الذين فقدوا الحياة . وهذا الاحساس الذى يحقق لنا الحياةليس حالة قارة ، لا متغيرة بل هى حالة تذبذب يتجاذبانقطباها بين مد وجزر وهذانالقبطانهما الشعور بعدم الرضى ، او الشعور بالرضى ، اللذان يظهران لدينا فيما نحققه من طمأنينة أو ما ينتابنا من قلق وجودى . حياتنا اذن قائمة على هذين الاحساسين المتناقضين ، وخاصة حياة الفنانين . فهى حياة أساسها « الحساسية » المفرطة عكس حياة المفكرين او العلماء :

« عش بالشعور وللشعور فانما   دنياك كون عواطف وشعور
« شيدت على العطف العميق وانها   لتجف لو شيدت على التفكير ،
« وتظل جامدة الجمال كئيبة   كالهيكل المتهدم المهجور ،
« وتظل قاسية الملامح جهمة   كالموت ، مقفرة بغير سرور » (31)

تلك هى « فكرة الفنان » . ان يحيا بشعوره . ولكن هذا الشعور فى ذات الوقت هو مصدر الشقاء فى حياة الفنان . فالحساسية المفرطة التى تمتاز بها عاطفته تجعله يتفاعل مع الكائنات تفاعلا يحقق له انفعالا يتسم فى الغالب بالكآبة والاسى ، وخاصة حساسية الفنانين الرومنتيكيين ، ومنهم الشابى ، الذى اعلن لنا أن حساسيته هى سبب شقائه . وما دامت حياة الرومنتيكى قائمة على الاحساس الذى لا يحقق له الطمانينة الا فى النادر ، فانه ليتبين لنا مدى الهوة الفاصلة بين الفنان الرومنتيكى وبين شعوره بالرضى ، أو احساسه بالطمأنينة ، التى تتمثل فيها سعادته ، ولذلك فقد آقترنت حياته

بحالة القلق الوجودى . « وهذا القلق الوجودى ، على الصعيد البشرى ، فى شكله الطبيعى ، يعد ، من ناحية احساسا بالضيق للشعور بعدم الرضى ، احساسا يبحث عن مسكن له فى الشعور الكثيف بالرضى : فى الطمأنينة (...) وهو من ناحية أخرى حالة شعورية بالضياع ، عمى حسى ، يتغلب عليه ، تطوريا ـ بالتبصر الدال » . (32) . وما يهمنا الآن من هذا التعريف هما هاتان الحالتان اللتان يظهر فيهما القلق الوجودى . وهما حالة الاحساس بالضيق للشعور بعدم الرضى . وحالة الشعور بالضياع . فهذا الضيق الذى ينتهب نفس الفنان فيشعر بالانقباض الحاد المتولد عما يجد الفنان فيه نفسه من ظروف قاسية وحالات حياتية شقية قد تكون من خلق حساسيته أحيانا ، ولكنها فى الغالب ـ كما هو الشأن بالنسبة للشابى ـ ذات جذور بعيدة فى حياة الفنان ذاتها . وذلك ما يضعه ضمن اطار مأسوى يهيمن عليه هذا القلق الوجودى الجاثم ، ويتطلع الى حالة الطمأنينة ولكن الشعور بعدم الرضى يذبذب احساسه فيفقد ما يمكن ان يتولد له من الغبطة أو السرور فى حياته . يكون توقه الى كثافة الشعور بالرضى كبيرا . يسمو بخياله وفكره الى الطمانينة فيراها طيفا نازعا وسرابا خادعا ، فتكون فداحة احساسه بالواقع وتكون محاولته الهروب الى عالم من خلق خياله . هو عالم «الحلم». وضمن ذلك الاطار المأسوى تتولد الحالة الثانية ، وهى الضياع ، أو التيه . ويجد نفسه أمام مفترق طرق كلها منذر بالخيبة وفداحة الفشل . فتراه يبحث عن العزاء وقد يجده احيانا ـ فى عالمه الخيالى ـ وقد يرتضى الانتحار حلا ، فى بعض الاحيان . وهذه الحالة الثانية هى الحيرة القاتلة ، التى تزيد من فداحة الاحساس بالقلق الوجودى وتكثف من عمقه فى نفس الفنان عامة ، وفى نفس الرومنتيكي خاصة . فهذه الحيرة الجذرية فى حياة الفنان ـ الفكرية والشعورية ـ هى بذرة القلق الوجودى . « هى القاسم المشترك بين جميع الكائنات الحية ، اذ انها تنتج عن تبعية هذه الكائنات ، الحتمية ، الى عالم يحيط بها ، قابل لان يكون عقبة امام اشباع الرغائب الحياتية » (33) ولا تقتصر هذه الحيرة لدى الفنان على اقلاقه ماديا ، بل ان المتاعب الفادحة تتحقق له فى حياته الفكرية والشعورية ، وذلك ان « الوسيط بين الحيرة المعاشة مباشرة والعالم المدرك بعمق ، هو الجسم . والحيرة تتبين من خلال الجسد . ولكنها لا يمكن لها أن تحقق ذلك الا بعد ان تكون قد انطبعت من قبل ، وهذا الانطباع ليس الا الحياة الشعورية » (33) وتكون حياة الفنان ـ الشعورية والفكرية دائما ـ بذلك ، هى الحيرة نفسها ، الحيرة الجذرية التى تقلب عليه صفو حياته وتكدر عليه غبطة الوجود التى لا يمكن لها ان تتحقق فى ظل تلك الحيرة القاتلة . فيشعر عندئذ بمرارة ، أنه انسان لا علاقة له بالعالم الذى يعيش فيه ويحيط به ، وان وجوده فى مجتمعه غير موفق ، بل أن مكانه

من الحياة جملة كان يجب ان يكون غير ذلك المكان الذى هو حيزه • وتتحد تلك الحالة الشعورية بكوامن النفس الموروثة الحاصلة عن خوف الانسان من كابوس مرعب يتصور له ويتشكل فى صور وأشكال عديدة ، فيكون تارة المصيـــــر المجهول وتارة الغد وما يكنه من غيبيات ، طورا شبحا مرعبا لطاغوت القـوى الغيبية التى تباغتنا بما لا يحمد وطورا آخر طيفا خابلا للحياة ذاتها • تلك الصور وتلك الاشكال كانت منذ أقدم العصور لاصقة بمخيلة الانسان • وقد أطلق عليها الشعراء والفنانون كثيرا من الاسماء ونعتوها بشتى النعوت ، من دقيقها تسمية الشابى لها بـ « ـغول الشقاء » (Le Démon) قلـت : ان كوامن النفس ـ الشعورية واللاشعـورية ـ المـوروثة الحـاصلة من خـوف الانسان من ذلك الشبح المرعب تتحد بتلك الحالة الشعورية الناتجة عن الحيرة الجذرية ، فيكون القلق الوجودى مقترنا بالخوف الذى ينتهب النفس الانسانية مهما تبلغ بها الشجاعة • هو اذن « حصيلة الاحتباس المتوهم للخوف • انـــه يبدو خوفا مستحضرا بالخيال ، حالة من الحيرة لا يشعر بها عند مواجهة الخطر الراهن ، ولكن فقط أمام الخطر المتصورة امكانية وقوعه » (34) • كذلـــك يبدو فى حياة الافراد • ولكنه فى حياة الفنان ـ الرومنتيكى خاصة ، والشاعر بصفة أخص ـ يتجاوز ذلك الخوف المتخيل ـ المتوهم ـ لما ينتج عن حساسية الرومنتيكى من فداحة الشعور بالحيرة الجذرية التى تكون حياته ـ الشعورية والفكرية ـ ويقترن عندئذ الخوف المتوهم المحتبس والوهم الحقيقى ، ويرتبط الاثنان بتلك الحيرة • فيكون القلق الوجودى آنئذ فى أشده وتكون قساوته فى ضراوتها • ويكون بحق ذلك « التضارب بين الخيال والواقع » فـى ذات الفنان ، ذلك التضارب الحاد ، العنيف •

لقد رأينا ـ الى حد الآن ـ ماهية القلق الوجودى وبواعثه النفسية العميقة الجذور فى نفس الانسان ، والفنان بصفة خاصة ، وفى حياتهما كذلك • غير ان هناك بواعث لهذا القلق لاتنبع من النفس ، ولكنها تتولد مباشرة من حياة الفنان بما يحيط بها من ظروف وما يعتورها من احداث ، كالمرض ، او فقــد عزيز ••• ويهمنا الآن ان نبحث فى حياة الشابى عن هذه البواعث الخاصة التى تزكى القلق الوجودى لديه كفنان ، وكشاعر رومنتيكى خاصة ، بعد ان نظرنا فيما يشترك فيه مع غيره من الفنانين من بواعث متصلة بالنفس •

* * *

تتعدد البواعث على نشوء القلق الوجودى لدى الشابى الى درجة توجـب الاحتراز ، ولكننا سننظر فى ثلاثة فقط من هذه البواعث ، لانها الاهم أولا ، ثم لانها صحيحة لا شك فى صحتها ، اذ نستنتجها من آثاره ذاتها ، زيادة على اقوال من عرفوه • وهذه البواعث الثلاثة هى فشل حبه الاول الذى انتهى بفقد حبيبته • ثم وفاة والده • ثم مرضه

أما عن حبه الاول ، فقد ورد ذكره كثيرا في الديوان ، وكذلك في مذكراته وقد كان هذا الحب اول شرارة تقذف بها الحياة فى قلبه الشاعر وهو صغير السن ، ولا نعرف آنئذ عمره ، ولا نعرف ظروف هذا الحب كيف نشأت ولا كيف انتهت ، ولكننا نعرف أنه ظل يبكيه الى آخر حياته ، ونعرف كذلك ان هذه « الحبيبة » كانت احدى رفيقات الصبى الاول ولا غرابة فى ان تكـون قصة حب بما فى كلمة الحب من المعاني المحتملة اذا عرفنـا ان الشـابى قال الشعر وهو فى الثانية عشر من عمره ، أى أنه خلق شاعرا وكانت حساسيته قوية منذ صغره • يذكر لنا فى مذكراته الاولى ــ I ــ جانفى 1930 ــ (35) انه جلس وحده فى سكون الليل يستعرض رسوم الحياة الجميلة ــ رسوم جنته الضائعة ــ ويفتكر فى أيامه الجميلة الضـائعة ، يستثيـر أرواح المـوتى من رموس الدهور ، جلس ينظر الى غيابات الماضى ، ويحدق فى ظلمات الابـد الرهيب الغامض ، فماذا رأى ؟ رأى رسوما كثيرة • ولكن من تلك الرسـوم والصور الكثيرة التى تتعاقب على نفسه كغيوم الربيع ، يتضح له اثنان منها ، لما لهما على حياته من الاثر • واول هذين الرسمين هو صورة تلك « الريحانة الجميلة » : « ثم ها هى تلك الريحانة الجميلة التى انبتتهـا فى سبيـل انامـل الحياة • ها هى تنظر الى بعينيها الجميلتين الحـالمتين بأحـلام المـلائكة • ثـم تشير الى براحتها الجميلة الساحرة وأناملها الدقيقة الوردية • ثم ها هـى تطبع على ثغرى قبلة حلوة ساحرة بشفتيها المعسولتين برحيق الحياة » (36) اما فى الديوان فكثيرا ما يعترضنا ذكر هذا الحب ، وهو دائما يذكره فى حالة من الحزن العميق والحسرة الكبيرة والاجلال الذى يتولد عن ذكرى عزيزة لـن يعود الماضى الذى وقعت فيه • وأول قصيدة تعترضنا فى الديوان فيها بكـاء على ذلك الحب ، هى قصيدة « مأتم الحب » (بتاريخ 3 أوت 1927) التى نستطيع الجزم فى شأنها بأنها رثاء حبه الاول • وفى قصيدة « جدول الحب ــ أو بين الامس واليوم » (بتاريخ 30 اوت 1927) يصور لنا حالته بعد تلـك الخيبة ، ويذكر لنا تلك الفتاة ، فيقول :

« هو جدول قد فجرت ينبوعه فى مهجتى
« أجفان فاتنة ارتنيها الحياة لشقوتى
« أجفان فاتنة تراءت لى على فجر الشباب
« كعروسة من غانيات الشعر فى شفق السحاب
« ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك الغيوم
« حيث العذارى الخالدات يمسن ما بين النجوم » (37)

اما فى قصيدة « الذكرى » (24 نوفمبر 1927) فيذكر ذلك الحب قائلا :

« كنا كزوجى طائر فى دوحة الحب الامين
« نتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصون
« ... ملأ الهوى كأس الحياة لنا وشعشعها الفتون
« حتى اذا كدنا نرشف كأسها غضب المنون ،
« فتخطف الكاس الخلوب وحطم الجام الثمين » (38)

أما فى المقطع الثالث من هذه القصيدة فنجد بيتا يثير الانتباه ، يخاطب به قلبه طالبا منه أن يرحمه مما يعذبه به من الصمت والدمع الهتون ، ثم يذكره

« مات الحبيب وكل ما قد كنت ترجو ان يكون » (39)

الا نستشف من هذا البيت أنه كان آملا « الزواج » من هذه الفتاة كذلك ؟ على كل ، نعود فنؤكد أن كل هذه الاحتمالات لا تفيدنا كبير الفائدة ما لم يتجاوز بها مرحلة الترجيح الى مرحلة اليقين ، وما أظن ذلك على الذين عرفوا الشابى حق معرفة ، بعزيز ، اذا اجتهدوا . ونكتفى هنا بالتاكيد بأنه أحب وهو صغير . وآثار ذلك الحب جلية فى شعره . وسنعود الى أثر هذا الحب فى شعره فيما بعد . وما نستطيع تأكيده أيضا هو أن ذلك الحب قد جعل القتام يسم نظرته للوجود والتشاؤم الطابع المميز لموقفه من الحياة . وهو باعث من بواعث تكثيف قلقه الوجودى .

اما الباعث الثانى فهو موت والده . وهو المحنة الثانية التى يصاب بها فى ظرف ثلاث سنوات بعد المحنة الاولى ، اذا صح وقوعها سنة 1926 كما تشير الى ذلك بعض الادلة التى لدينا . لقد مات والده فى 8 سبتمبر 1929 بعد عودته الى توزر من زغوان ، التى بقى فيها الى أواخر جويلية من عام 1929 . (40) ونلاحظ فنرى ان موت والده كان عليه فادحا فداحة عظيمة جدا . وذلك لما تسببت له فيه من المتاعب المعنوية ، اذ فقد عزيزا غاليا ، ثم لما تسببه له من المتاعب المادية ، اذ ستحد من حريته ــ حرية الشاعر ــ فيقوم على أسرته مقام الاب اذ انه واجب عليه ان يرعى شؤونها ويكون عائلها بعد فقد عائلها . وان هذا العامل لما يزيد نظرته الى الحياة قتامة ويزيد تشاؤمه حدة . وهو لذلك كله رثى والده بقصيدة « يا موت » (غرة اكتوبر 1929) . وهى قصيدة كما وصفها هو عند تقديمها فى الديوان : « صرخة من صرخات نفسى المملوءة بالاحزان والذكريات ، وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الحياة . قلتها فى أيام الاسى التى تلت نكبتى بوفاة الوالد ، رحمه الله » (41) ويقول للموت :

« يا موت قد مزقت صدرى وقصمت بالارزاء ظهرى
« ... وفجعتنى فيمن أحب ومن اليه ابث سرى

« وأعـده فجـرى الجميـل إذا ادلهـم على دهـرى ،
« وأعـده وردى ومزمـارى وكاسـاتى وخمـرى ،
« وأعـده غـابى ومحـرابى واغنيتـى وفجـرى ...
« ورز أتنـى فـى عمـدتى ومشـورتـى فـى كـل امـر
« وهـدمـت صـرحـا لا ألـوذ لغيـره وهتكـت سـرى . » (42)

وإذا عرفنا مدى هذه المكانة التي كانت في قلبه لابيه ، تبين لنا مدى ما يحدثه فقده في نفسه من الالم الذي يزيد من حدة نظرته التشاؤمية الى الحياة والوجود معا ، وعرفنا لماذا كان أحد الرسمين اللذين تميزا له من بين الرسوم التي تراءت له من ماضي حياته لما جلس وحده في سكون الليل محدقا في ظلمات الابد الغامض : « ثم ها هو أبي ينظر الى بوجهه الباسم الضحوك ومن عينيه تفيض عواطف الأبوة الراحمة الحنون وها هو يحادثني بصوته الهادىء الرزين . ثم ها هو يماشيني في ضواحي « زغوان » ، ويصعد في سبل الجبل المحفوفة بأشجار الصنوبر ذي العطر الاريج . ثم ها هو يشير بيده الى تلك السهول المخضرة المترامية ومن بينها تتناثر كثير من الاكواخ الجميلة والقصور الانيقة التي تشابه حمامات بيضاء واقفة بين المروج » (43) .

اما العامل الثالث فكان مرضه . وهو العامل الاهم الذي جعل القلق الوجودي يكون أحد على حياته وأشد اثرا في شعره . ولمرض الشابي قصة طويلة كثر فيها القول . ولكن الرأي قد استقر أخيرا على أن الشابي كان مصابا بضعف في القلب . وقد ذكر هو ذلك في احدى مذكراته ــ بتاريخ 16 جانفي 1930 ــ كان يقوم بنزهة صحبة رفقة له . ورأى مشاهد كثيرة متباينة « هاهنا صبية يلعبون بين الحقول ، وهناك طائفة من الشباب الزيتوني والمدرسي يتريضون في الهواء الطلق والسهل الجميل ، ومن لي بأن أكون مثلهم ! ولكن أنى لي ذلك والطبيب يحظر علي ذلك . ان بقلبي ضعفا . آه يا قلبي ! انت مبعث الاسى ومستودع أحزاني ، وأنت ظلمة الاسى التي تطغى على حياتي المعنويـة والخارجية » (44) ويؤكد هذا ما ذكره محمد فريد غازي عن مرض الشابي . قال : « ان صدقنا أطباؤه ــ وخاصة الحكيم الماطري ــ قلنا ان الشابي كان يألم من « ضيق الاذينة القلبيـة » (Retrécissement mitral) أي أن دوران دمه الرئوي لم يكن كافيا (...) وضيق الاذينة القلبية « هو ضيق او تعب يصيب مدخل الاذينة ويجعل سيلان الدم في الشرايين من الاذينة اليسرى Oreillette) gauche) نحو البطينة اليسرى (Ventricule gauche) سيلانا صعبا أو معترضا (...) وهذا المرض كثيرا ما يكون « وراثيا » (وهو) كثيرا ما ينشأ عن برد يصيب الاعصاب والمفاصل ، وهو يظهر في الاغلب عند الاطفال

والشبان ، ما بين العاشرة والثلاثين ، وخاصة عند الاحداث على وشك البلوغ» (45) ومن المؤكد أن مرض الشابى لم يقف عند حده الطبيعى ، بل كان يزداد تضخما ويزداد بذلك شدة على حياة الشاعر ٠ ومن تلك العوامل العديدة ماذكرناه آنفا من صدمته بفشل حبه الاول ، ثم صدمته بموت أبيه ، ثم مزاجه الخاص المتأثر بعصابية الفنان فيه وعصابية المريض العادى ، ثم انه كان ، فى حد ذاته ضعيف البنية ، وقد تزوج رغم ضعفه ورغم المرض الذى كان يعـانيه ، مـع ما يمكن ان يتركه الزواج من اثر سىء على مرضه ٠ ثـم هو فـوق ذلك كلـه لم يلتفت الى نصيحة الاطباء له بألا يرهق نفسه بالتفكير ونظم الشعر خاصة ، لما يسببه له الشعر من المتاعب احداها الحالة او الحالات التى يعـانيها اثنـاء « النوبة » ، كما رأينا ذلك ٠ ومن الطبيعى جدا أن يتطور المرض نفسه اذا لاقى عدم العناية بـــه ٠

تلك هى العوامل الثلاثة التى اتحدت على انماء القلق الوجودى فى حيـاة الشاعر ٠ القلق الذى يولد شعورا دائما بالالم العميق فى اغوار النفس وابعاد الذات ، يلازم الشاعر فى كل احساس وفى كل رؤية ، وان تعلل فيمـا بين ذلك بطيف شعور بالغبطة نتيجة ما تتعلق به نفسه من أوهام تتراءى لها احيانا خيط النجاة نتيجة حساسيتها المرهفة ٠ واذا اتحد ذلك القلق الوجودى بما يرسب فى أعماق اللاشعور من موروث الخوف من « غـول الشقـاء » تولـدت فى حياة الانسان تلك الحالة الدائمة من الشعور بعدم الرضى ٠ وبذلك تتولد فى حياة الانسان حالة أخرى أشد ضنى وأحد مفعولا فى الحيـاة البشـرية ، وهى حالة « السام » او « الضجر » (l'Ennui) التى ادت بكثير مـــن الفنانين الى الانتحار ٠ ولقد كان اثر ذلك القلق الوجودى على شاعرية الشابى بالغ الاهمية ٠ فكيف تجلى ذلك الاثر ؟ ذلك هو موضوع الحلقة الرابعة مـــن هذه الدراسة ، فى العدد القادم ٠

ابراهيم بـن مـراد

المصـــادر :

28 ـ الدكتور عز الدين اسماعيل ـ التفسير النفسيللادب ـ ص 39 ـ وانظر تفسير العبقرية ومكوناتها من ص 36 الى ص 42 ٠

29 ـ أبو القاسم الشابى ٠ أغانى الحياة ٠ ط 2 ٠ ص 151 ٠

30 ـ Paul Diel - la Peur et l'Angoisse. P 11 - 2. Edition 1968 P.B. Payot - Paris

31 ـ اغانى الحياة ٠ ط 2 ٠ ص 190

32 ـ Paul Diel - P 13.

33 ـ Paul Diel - P 12.

34 ـ Paul Diel - P 149

35 ـ مذكرات الشـــابى٠ ص 7

36 ـ نفس المصدر ـ ص 9 ٠

37 ـ اغانى الحياة ـ ص 83 ـ 84

38 ـ أغانى الحيـــاة ـ ص 88

39 ـ اغانـــى الحيـــاة ـ ص 89

40 ـ عامر غديرة ٠ « محاولة جعل اطار لترجمة الشابى » مجلة الفكر ديسمبر 1959 ـ ص 18ـ25 ـ وانظر كذلك : الرسائل ـ الرسالة الثالثة ٠ (أوت 1929) ص 25 ـ 28 ـ والرسائل الـــرابعة (اوت 1929) ص 31ـ32 ـ وخاصة الرسالة الخامسة (سبتمبر 1929) ص 36 ٠ وفيها يخبر الحليوى بوفاة والده ٠

41 ـ اغانى الحيـــاة ـ ص 140

42 ـ اغانى الحياة ٠ ص 140 ـ و ص 143 ـ (يفصل بينهما رسم بريشة حاتم المـــكى)

43 ـ المذكرات ٠ ص 9 ـ انظر المذكرة المؤرخة بـ 12 ـ 1 ـ 1930 ص 49 ـ 50

44 ـ المذكـــــرات ـ ص 58

45 ـ الدكتور محمد فريد غازى ـ « مرض أبى القاسم الشابى ٠٠ مجلة الفكر ص 27ـ28 ـ ديسمبر 1959

الى امرأة شقية مثلي

شعر : أحمد القديدي

أحبك ثائرة غاضبه
تهدين صمت الفراش الحزين
أنا أكره العاشق المستكين
وأحتقر المرأة الراهبه ٠

* * *

أحبك ملهوفة مارده
ككل البراكين محض آحتراق وشهوه
فأنت اذا ما تمردت حلوه
وإن مت أصبحت كالقهوة البارده ٠

* * *

اذا لم يكن حبنا كالحياة عنيفا
فماذا يكون
لماذا نطيل على معبد الكبرياء الوقوفا
لماذا نخون ٠

* * *

معى أنت عاصفة عاصفه
ونحن كطفلين ننسى عبور الزمان
ونحيا على الساعة الواقفه
كأن الدقائق أمست رهان ٠

* * *

أحبك عارية كالصنوبرة الطاهره
تمدين فرعك نحو السماء

تغوصين فى الأرض كالبذرة الثائره
أنا أكره العجز والضعف والافتراء
وأحترم المرأة القادره ٠

* * *

أحبك فى وحشة الكون ثوره
وأهواك فى عالم الرقم فوضى
أحبك عبر سجون الأكاذيب حره
وحين نقول نعم للمصير أريدك رفضا
وفى حقل أيامنا البور زهره
وفى قحط هذا الوجود انفجارا وفيضا ٠

* * *

أحبك عارية عاريه
على شاطىء لم تدنسه بعد قدم
ننام على الموجة الحانيه
لنجتاز حد الهوى للعدم
ونسقط فى لذة الهاويه
فما أروع الحب حين تموت لديه القيم ٠

* * *

غدا حينما يصبح الدرب قفرا
وينفلت العمر بين أناملك الحالمه
سيبقى الهوى فى ضميرك ذكرى
كفجر يبدد وحدتك القاتمه ٠

* * *

غدا حينما يقفر الشاطىء
وينسى هوانا
وتمسح ريح الخريف رسوم خطانا
يشير الصغار الى عاشقين سوانا

غدا تشعرين ببرد السنين
ولا موقد دافىء لا حنين
كأن الصبا لم يكن يا حبيبى ولا الحب كانا ٠

* * *

كذا أنت ، لا تنكرى يا صديقه
تعيشين حبا ملح النداء
أتنكر زيتونة أنها وجدت للعطاء
تضيء تظلل تطعم تعطى الشفاء
كذا أنت ، لا تهربى من قبول الحقيقه
وعيشى معى فى احتضار الدقيقه
فانى أحبك حتى انقطاع الرجاء
وحتى اكتساح الدروب السحيقه
أحبك حتى الجنون وحتى الفناء ٠

ا٠ ق٠
جانفى 1970

الجفـــــاف ...

قصة ، بقلم : على الشملى

خيوط الشيب فى رأسها سنابل قطن بلا رائحة وجسمها النحيل أشبه بدمية جمدت بها نظرات صافية مثل سماء بلادها وحسرة قلبها تنشر الحيرة والخوف بلا رحمة فتتعفن ذكرياتها وتنسى انها لن تقوى على احتمال الوحدة المرة ما دام لا يسمح لهـا بمـرافقته الى حيث يمضى وحيث لا بـد أن يكـون العمل من رائحة الارض والرزق نداء صالحا الى الخبز والسعادة ... كثيرا ما كان يقول لها انك زوجة صالحة رائعة ايام لم يكن يفكـر فى التشـرد ولا فى البطالة وكانت كلما حاولت فهم قلبه عندما يطمئنها بأنه سيأخذها معه الى حيث يستطيع الحياة تشعر بحبها له يطأطىء رأسها الى موضع قدميها لتترأرأ الدموع فى حدقتيها لامعة مخلصة ... وانتهت اشغال الحضيرة التى عمل بها سنوات وبحث عن اخرى اشهرا عاش خلالها يشرد بنظراته فى فراغ الفضاء ليتحدث الى كل الاشياء المبعثرة حوله منذ الصباح حتى ساعة امتداد أصابعه متشنجة الى كأس يحاول كلما افرغ محتـواها فى حلقـه أن ينسى الدمـوع ويبحث عن لذة لوجوده ولو مزيفة ، وعندما يبلغ نشوة النسيان يدحرج عينيه فى بطء على زوجته ويحتضنها فى رفق ليعيش معها قصة حب قديمة تذكرها بماضيها البعيد وايام شبابها الصاخبة تمليه لذة الكأس بعدما كانت من وحى الشعور الفياض والقلب الكبير وثورة الايام اللذيذة ... وتتمنى لو يطول مفعول الخمرة فلا يصحو من هـذه النشـوة ويتمـادى بـه النسيـان الى هذا الحب الذى ظل يحرمها منه ايـامـا طـويلة ... ولكنـه يلفظهـا عنه فجـأة ويقطـع الغـرفة ذهـابـا وايـابـا متمتمـا اشيـاء غـامضـة ... ودفعـه الاحتياج الى نسيان الكأس اللعينة ، فبقيت زوجته بجانبه تعـانق بعينيهـا الذابلتين حلقات من دخان سجارته المتصاعد الى الفضاء قبل أن يتـلاشى . مل الانتظار الاجوف ولم تحتمل موت نظراته فى عالم الاشياء المتمزقة حينما استمعت الى اغانى الشتاء وذكرته بالرحيل الى حيث لا بـد أن يكون العمـل من رائحة الارض ، وتظاهرت بالطمأنينة محاولة ابداء لامبالاتها حينما لاحظ لها أن الارض وحدها أصبحت ملجأ المتعبين ومهد الحائرين ...

– فى الارض قلب يخفق لينفض عنك عناء الوحدة المرة ورجل مثلك جدير بأن يلاحق الرزق حيثما كان ، ومن الارض ستفيض الكآبة لتملأ نفسى حيرة طوال ايام الانتظار ...

ـ انت امرأة لها عاطفة مستيقظة لا تنام ...

والارض أم تجردت من الانانية ساجد فى حضنها الحب الذى فقدته من الازل الى الابد ...

ودمعت عيناها حينما اخفى وجهه فى راحتيه وقال :

ـ لم تكن ثمرة الضياع ولا هذه الشجون غير الجفاف العاطفى ، غير الصمت ينسج بيننا مشاعر باردة تنقلب الى جحيم اسود لعين ...

وارتعدت مشلولة الحركات ولكن ابتسامة ذابلة مصطنعة افترت على شفتيها ومضت كما جاءت بلا لون ولا طعم ...

وحلت ساعة الرحيل الى المجهول ، الى البحث عن الارض الأم ، فجثم الفراق بينهما يمزج الخوف بالحزن شبح غريب مخيف يذكره بأنه سيشقى من اجل السعادة ، من اجل صفة لقاء منتظرة ملها الآن ولكنه سيشتاق اليها عندما تعصف به الوحدة المرة ...

دمعت عيناها فحدق فيهما طويلا وهو يعرف أنه لم يفكر فى اخذها معه الى حيث يمضى وسيتركها الى وحدتها وفقرها وجفاف ارضها ، ولم تحاول هى بدورها حرث ذكرياته البعيدة لتعيد له منها واحدة كثيرا ما نقشها على شفتيها بلمحة اهدابه الحالمة ...

طأطأ رأسه ومضى ليتركها تتمتم اشياء غامضة ويصرف بحركة بطيئة كلبه الصغير الذى ارتمى بين اقدامه فيعود الى عتبة البيت ويجثم هناك ... لم يكن لزوجته الحائرة ترافقه حاملة معها ابتسامة وداع كئيبة ولا باعثة له نظرة اخيرة تلمع بها دموع الاسف لفراقه فليس هناك قطار يطل من نافذته ليلوح لها بيديه المرتعشتين وهى على الرصيف الصغير وليست هناك باخرة يصعد مدرجها حاملا حقيبته الثقيلة فتنتظره لتلتقى به مطلا من سطح الباخرة الشاسع الممتد ، ليس هناك الا أمل طفيف بوجود عمل يضمن له حياة كريمة وعودة سعيدة .. ليس هناك غير طريق تمتد من البيت نحو الصخور الى الفضاء البعيد يسلكها وتنغرس شعابها فى قلبه لتكون منتهى احلامه ... تبعثرت خطواته تعانق جراحها فى وقع يزمجر موحشا مرعبا ، فامتلأت نفسه لوعة مخيفة حين تذكر وهو فى نصف الطريق دمعها البارد المنهمر راحلا مع رحيله الى افق الغربة حيث لا بد أن تكون الحياة من رائحة الارض ...

الطريق تنغرز منعرجاتها فى قلبه وخلف كل منعطف يحلم بالخبز فى صور

من الاحلام القديمة تختلط فيها الحقيقة بالوهم ··· ساقاه متصلبتان خطواته قصيرة مبعثرة تغالب اعياءه فيحدث وقعها ثرثرة سرعان ما تتلاشى فى تهاويم العصافير النائمة فوق الاغصان ··· لفه الغموض فلم يعد يقوى على التفكير المنظم ومضت تخيلاته ترسم اشباحا آدمية غامضة متحركة الا خيـال امـرأته الحزينة الصامتة فكان يلمحه جامدا بلا حياة وتضج فى اعماقه افواج الدموع الباردة فشعر بحبات العرق البارد تملأ جسمه الهزيل وتنهش منه فى سخرية دامية أجزاء من الشعور الكئيب ، احس كأن دقات قلبه قد توقفت ولكن اقدامه ظلت تحرث غبار الطريق الخالية ··· وأيقظه من شروده أنين مبهم لا يعلم له ماهية فشعر بالخوف يملأ ذاته ويفتت أوصاله وبالألم يعبر كيانه ··· ظل الأنين المبهم يزداد باسطا غموضه فى قلبه وفى الطريق ويغوص فى اعماقه المتعبة لا يرحم ولا ينتظر فيتصبب العرق باردا غزيرا من جسده يلتهمه جفاف الارض المقفرة ، وسرعان ما تنتهى الرياح من الصـراخ ويخفت الأنين ولكنـه يمنـع شمس الامل والعزاء من الشروق ساطعة على حياته فينتفض على الارض متعبا متمنيا لو تنجب له الايام أرضا أو تلد له امرأته ضيعة ولو قاحلة يلاحق جفافها بساعد من حديد ·· ولكن امرأته لم تنجب له ولو طفلا واحدا يفتح أمامه آفاق المستقبل الزاهر ، وهو يحبها لانه وعدها بالحب وأحبها قبل أن يتفق معهـا على الولادة ، هى شهوة دخلت قلبه بلا استئذان ورفضت الخروج ولن يسمح لها لانها اختلطت بشعوره ··· قلبه لم يزل ينهل الحب من طيفهـا البعيـد الماثل أمامه الزاحف نحو رائحة الكلمات البيضاء ··· سقط من التعب ودفن نظراته فى الارض فاقبلت عليه الملائكة فى ثوبها الابيض الناصع المقدس ، طلبت منه كتابه ، منذ لحظة قبل أن يقطع الصراط كان على يمينه ولكنه الآن وجده على يساره واحتار فى امره ، لقد خفت موازينه ، كان فى شبابه بطلا ، وعاش يجاهد فى سبيل ارضاء الضمير والوطن ، حرص على أن يسلم الناس من يده ولسانه طيلة حياته ليكون تقيا من اتقيـاء اللـه ويجـد كتـابه على يساره ··· زحفت دموعه من حدقتيه عريضة مسترحمة خـاشعة ، ودعتـه الملائكة لتنقذه من هذيانه : الجنة التى وعد الله بها عباده الصالحين كنت من اصحابها قبل ارتمائك فى الطريق تاركا زوجتك المخلصة ينهش ضجيج الحيرة اعماقها ويصرخ بها الشوق الى مهبط الذكريات عشت مناضلا ليسلم الناس من يدك ولسانك ولكـن قلب هـذه المـرأة المخلصـة كان ضحيـة كبريـائك المر ··· خرجت ولم تترك لها ولو بسمة بيضاء تصارع بها الشرود ، مضيت ولم تخلف لها فى مسمعيها ولو همسة رخيمة تطغى على اصوات الفجر والحيرة تنسى بها الحزن والألم ··· سيبقى كتابك على يسارك ··· واخترقت حبات الماء ثيابه لتلمس جسده الحار فانتفض فى صراخ مخيف يفرك عينيه وينفض معطفه القديم الـذى توسـده عندمـا احس بالتعب وسقط على الارض ···

وتحسس كتفيه ثم قام يجر الخطى ويتأمل السحاب الاسود ، والارض الراوية والمياه التى بدأت تتجمع على حافتى الطريق ، بدت لعينيه الطريق أمامه سابحة فى المياه ، والتفت الى الوراء يفكر متحسسا كتفه الايسر فظهرت له المدينة من بعيد غارقة فى اضواء المساء المصطنعة بلا سحاب ولا مياه يسحقها الجفاف ٠٠٠ نظر الى أمامه هناك حيث يتكاثف السحاب فوق ارض لا بد وأن يكون العمل فيها من رائحة التراب ٠٠٠ القى مرة أخرى برأسه الى الوراء ليشاهد المدينة تغتسل بجفاف المساء ، فدمعت عيناه واختلطت دموعه الباردة بحبات المطـر الحبيبة فامعن نظره فى سماء الرحمة وتمنى أن يكون ريحا ثائرة تدفع سحابها المتكاثف هناك فى أفق الامل الى اجواء بلاده البعيدة ٠٠٠ وتحسس من جديد كتفه الايسر ثم واصل يعزف بأقدامه سمفونية الحب والخير متمتما : عسى أن استنشق عبير الارض المرتوية ورائحة التربة المبللة فلن ارجع قبل أن ابتسم للرغيف الذى سأنجبه واصبغه بلون العاطفة المخلصة ٠٠٠

ع٠ ش٠
المنستير

إقرؤوا فى الأعداد القادمة

- « تكهل » قصة ، بقلم : رشيد الغالى
- « عيناك وغابة أحزانى » شعر : سويلمى بوجمعة
- « السور القديم » شعر : نور الدين العكارى
- « الى شعراء العالم » شعر : المنصف الوهايبى
- « لانى ما انتفعت بأن أبالى » قصة، بقلم : حسين الواد
- « رسالة لن تصل » قصة ، بقلم : الحبيب ابراهم
- « ألف لام ميم » مسرحية ، بقلم : أحمد القديدى
- « أدب القوة والامل » بقلم : رمضان لاوند
- « كلمات قبل الاعدام » شعر : الطيب الرياحى
- « يأس أخضر » قصة ، بقلم : عبد الجبار الشريف
- « الأحمرة » قصة ، بقلم : محمد باردى الخ ٠٠٠

صوت من جبل الصمت

شعر : الطيب الرياحي

أنَـا أنْتَ أيَـا شَعْبِي
أنَـا عَيْنُكَ ...
أذْنُكَ ...
صَوْتُكَ يَا شَعْبِي ...
أنَـا مِنْكَ ...
إليْكَ ...
فكَيْفَ أخُونُكَ يَا شَعْبِي ...

* * *

أنَـا أنْتَ أيَـا جَدّي المُتْخَمْ
بالسوس وبالاوراق النّقْدِيَّه
أنَـا أنْتَ أيَـا جَدّي ،، فَتَقَدَّمْ
وَارْقُصْ فَوْقَ الاعْنَاقِ المَحْنِيَّةِ ...
لاَ تَخْجَلْ ... لاَ تُشْفِقْ ...
أغْرِسْ فِي صَدْرِي السِّكِّينْ
مَزِّقْ بِالمِنْجَلِ قَلْبِي الاحْمَرْ
واطْعَمْ ثَوْرَكَ وَالْجَمَلَ الادْبَرْ
وانْسَ اللهَ فَإنَّكَ مِنْ طِينْ ...

* * *

ضَعْ أذْنَكَ يَـا جَدّي فِي الارْضْ
وَاسْمَعْ ... هَلْ تَسْمَعُ صَرْخَـاتْ :
النُّطْفَةُ تَبْكِي يَـا جَدّي

وَتَكِيلُ اللَّعَنَاتْ
فَاقْبَلْ ، وَارْقُبْ أنْفَاسَ الرَّفْضْ ...

* * *

أنَا نَحْنُ الكُتَّابْ
نَرْقُصُ فِي النُّور ،
وَنُحْرِقُ فِي اللَّيْلِ الاهْدَابْ
وَنُصَفِّقُ بِالْحَرْفِ
لِنُرْضِي الالْقَابْ ...
أنَا نَحْنُ المَشْدُودُونَ إلى القَصْرْ
أنَا نَحْنُ المَوْلُودُونَ بِلاَ عُمْرْ
نَكْتُبُ بِالزَّيْفِ كِتَابَ الحُرِّيَّه
وَنُصَادِرُ ... نَرْفُضُ مَا تُمْلِيهِ الثَّوْرِيَّه ...

* * *

أنَا هذَا الصَّوْتُ المَكْبُوتْ
يَتَفَجَّرُ مِنْ جِيلِ الصَّمْتْ
يَتَفَجَّرُ رَغْمَ المَوْتْ
وَيُعَانِقُ وَجْهَ الحُرِّيَّه ...

* * *

القَلْبُ الضَّامِيءُ لاَ تُرْوِيهِ الدَّعَوَاتْ
القَلْبُ الظَّامِيءُ لاَ تُشْفِيهِ الاهَاتْ
القَلْبُ الظَّامِيءُ يَا شَعْبِي
ثَأر تُرْوِيهِ الطَّعَنَاتْ ...

ط٠ ر٠

نَدْوَةُ القُرّاء

قضيتنا ان ليس لنا تاريخ

بقلم : حسين الواد

قدر لتونس ــ ما وراثيا أو جغرافيا ــ أن تكون معترك السائد من الحضارات الانسانية ولعل آخر حضارة تركت من الآثار فى بلدنا ما هو عميق جدا هـى الحضارة العربية الاسلامية حتى أننا أصبحنا نعتبر أنفسنا عربا ضاربين عرض الحائط بالبربر وبما تبقى فى الخليط التونسى من الحضارات الاخرى ، وبناء على الاسلام واللغة اصبحنا نعتبر الحضارة الاسلامية العربية جزءا من كياننا و « رحيقا لارواحنا » • وعند هذه الظاهرة اريد اليوم أن أقف فأقول :

من الاتنوغرافيين من يتسلح بعلامتين أساسيتين عندما يشرع فى دراسة حضارة انسانية ما •

الاولى ، ولها قيمة القاعدة ، هى احساس تجمع بشرى مـا بالوجـود على طريقة معينة •

ثم وضعه لذلك الاحساس معنى يسمى فى غالب الاحيان « كنه الحيـــاة » والثانية ، ولها قيمة الغاية • هى وضع ذلك التجمع هدفا يعتبر هدف الانسان من الوجــــود •

هنالك اذن احساس معين بالوجود ينتج عنه هدف معين للانسان من الوجود وبناء على ذلك تعود المفكرون الا يفضلوا بين حضارة وأخرى لما فى ذلك من انتهاك لحرمة الانسان وقيمته ، وانما ميزوا بين الحضارات باعتبار ارضائهـا لحاجات الانسان النفسية أو عدم ارضائها لتلك الحاجات •

والدارس للثقافة العربية الاسلامية كوسيلة تصل عادة بين القاعدة والهدف، لاشك متفطن الى أن هذه الثقافة لم تعد تصلح لارضاء حاجات الناس النفسية ، ومعنى ذلك أن القطيعة بيننا اليوم وبين الثقافة العربية الاسلامية وقعـت :

« فالأحاديث » ما عدنا ندرسها لنستنبط منها قوانين ، والفلسفة الاسلامية ما عادت فلسفتنا ، والحضارة الاسلامية بطبها البدائي الذكي وبعلومها الكلاسيكية وبهندستها الشرقية ما عادت منا والينا ، وكذلك الادب : فأن يقف بعضهم على الاطلال وأن يسخر من ذلك آخرون ، وان تشبه المرأة بالبدر أو الضبي وأن يشبه السيد بالاسد والبحر ما عاد يثير فينا الاحساس او يبعث الفكر • وبناء على ذلك أصبحنا ننفر من الانتساب الى هذه الحضارة مهما كانت عراقتها في المجد ، وياله من مجد نهينه بسحبه من ماضيه ونقيمه اله قداسة في حضارة مكانه منها الغربة والاضحاك ، ونتج عن هذا الجرم أن وقف مثقفو العالم العربي الاسلامي موقفين :

الاول وقفة أناس اعتبروا الغرب عدوا ورفضوه مبدئيا ، وبقي في اذهانهم أن الثقافة العربية الاسلامية هي وحدها الثقافة : فالادب العربي الاسلامي هو الادب وأخلاق العروبة هي الاخلاق وماعدا ذلك أضاليل ملعونة • والثاني وقفه جماعة درسوا في الغرب وتأثروا بالآداب الاجنبية فعادوا وفي انفسهم على كل ما هو عربي اسلامي أشياء ، يسمون بالانحطاط كل مامت اليه بصلة •

وفي كلا الموقفين شطط،وذلك لانهم ارادوا مجهدي النفس أن يكون البناء على الماضي وأن يكون في الحاضر من تلك الثقافة شيء غير قليل ، فهل غاب عنهم أن الحضارة الاسلامية بثقافتها أصبحت أثرية وأن دراستنا لها يجب أن تلازم الفترة الزمنية التي سادت فيها عندما كانت قادرة على ارضاء حاجات نفوس أفراد أقبلوا عليها بالتوسيع والبناء ، فاذا قلنا بعد ذلك أن الغزالي أجاد فان اجادته رهينة عصره ، واذا قلنا ان ابن رشد كان فذا ، أحلنا ذلك الى عصره وثقافة عصره أو الى الذكاء الانساني عامة ، واذا رأينا امرأ القيس يهيمن على الشعراء بعده رددنا ذلك الى أمة غير أمتنا والى نفسية غير نفسيتنا ، ولا أتصور اليوم رجلا واحدا يمزق بذلته أو يستلقي على ظهره ضحكا (اللهم الا اذا كان مخبولا) او يقول « هذا أشعر بيت قالته العرب » ، فنظرتنا الى الحياة تغيرت وتذوقنا للشعر والفن تغير ، ولم نعد أولئك البسطاء عندما كانت البساطة لقبا حسنا ، ولنا اليوم مشاكلنا الخاصة بنا كالغربة والضياع والقلق اذا راعينا النفوس • وكالفقر والجوع والتطلع الى المستقبل اذا راعينا الجماعات ، وكالتحرر والموضوعية والعظمة اذا راعينا الفكر والصناعة •

واذا ذكرنا أن حظ تونس من هذه الثقافة العربية الاسلامية كان ضئيلا جدا أدهشنا الفراغ الذي في ماضينا المغتصب وعاودتنا من الحرقة غصات : فأن يكون في تونس سحنون وان يكون منها ابن رشيق ، وأن ينبغ فيها ابن خلدون لقليل وقليل جدا ، ومأسوى مهول • وقد يرى من الناس في ذلك أن

الثقافة العربية الاسلامية لم تخلق لنا وما صلحت فى يوم من الايام أن تكون بلسم جراح وملاذ غربة لهذا الخليط العجيب الذى تتكون منه الامة التونسية اليوم ، ولكننى لا أحكم أبدا ، وانما أقف أمام هذا الفراغ يحمل لنا من الماضى على ظهر الزمن والذكرى أنه ما كانت لنا حضارة وبالتالى ما كانت لنا ثقافة قط وأن ذاتيتنا ما زالت مجهولة تتفاعل مع الاجنبى من الثقافات عن طريق الاحتكاك وتنام مشلولة الجوهر والاوصال فى بوتقة من القلق الممض • ولعل أكبر دليل على ذلك أن التفاتنا الى الشرق أيام ازدهار الثقافة الاسلامية كان عظيما ، وأن تطلعنا اليوم الى الغرب كبير لما فى الثقافة الغربية من عمق تشترك فى معاناته كل النفوس البشرية •

غير أنى أريد أن الاحظ أن الغرب بثقافته لن يصلح لنا ، فهو قد اجتاز من العقبات ما لم نواجه بعد ، وبلغ من التطور شأوا مازلنا عنه جد بعيدين وبالتالى فالبون شاسع بين مشاكله ومشاكلنا : فالشاب الغربى يأتى الى الوجود فيجد كل شيء جاهزا فى انتظاره : الثروة ، العيش الرفيع ، الملذات ، والثقافة والطبيعة مسخرة له كأجمل ما يكون التسخير وأروعه • أما الشاب التونسى، واستثنى الاقلية المحظوظة ، فان وجوده يدعوه الى مواجهة عديد المشاكل وانا لنطلب منه كل شيء ، وانا لنحاسبه على الخطا قد يصدر عن الغفلة منه •

واذا كانت مأساتنا أن ليس لنا فى التحضر تاريخ ، فان أملنا الوحيد فى انعدام هذا التاريخ أيضا ، فمسؤوليتنا اليوم كاملة لا يقيدها من الماضى شيء ولا تضطرها التقاليد أن تكون على صفة معينة ما وانما سنكون بسواعدنا اذا عمل الساعد وبأفكارنا اذا اشتغل الفكر • واما أن نيأس فى وضع كالحاضر فنذالة وجبن ، وأما أن ننتحل الاجنبى من الثقافات فضعف وحقارة ، وأما أن نعتصم بالتجاهل فرجوع الى الحيوانية نقدم عليه طوعا للكسل وعبودية للنوم•

ويقينى أنه لا بد أن يكون لهذا الخليط شأن ، ولا بد أيضا من ان تنتج عنه اذا جد أشياء ، فليكن العمل لنا سلاحا ، وليكن الصبر لنا رائدا ، وليكن النجاح لنا هدفا ، ولتكن الذاتية لنا قاعدة •

ح• و•

كلمة بيانية ثالثة في « غير العمودي والحر » (1)

بقلم : الطاهر الهمامي

14 ـ لا تظن أن الخروج عما عهدت من موسيقى الشعر العربي ولغته وبنائه عمل اعتباطي عن لنا فجأة ، فكرة عارضة ولدت هكذا من عدم ، فدلكة • وإنما هو **تمخض حتمي** لعدة مراحل مرت بها القصيدة العربية قبل أن تنتهي إلينا ، ولعدة إرهاصات وترقبات عاشت في الضمائر طويلا •

15 ـ مما جاء في كلمتي البيانية السابقة أن « اللغة والوجود ملتحمان ••• »• ألا ترى أن قمة الخلق الشعرى **جماع بين لغة الشاعر ووجوده** ، إخضاع لها ، درجة من الاحساس بها تجعله ينفذ الى مغلقاتها ، يفتضها ، يحملها • يحبلها • يشكل منها البناء الذى يشاء !

16 ـ لقد سقط مفهوم الشعر والشاعر في هذه البلاد سقوطا شنيعا • وعلى أنقاضه نحاول البناء •

17 ـ قراؤنا ثلاثة : قارىء له من الثقافة والاستعداد ما يجعله ينسجم معنا لأول وهلة •
وقارىء له من الثقافة ما يبعده عنا ومن الاستعداد ما يقربه الينا • فهو بذلك قابل للتفهم والانسجام •
وقارىء يرفضنا رفضا مسبقا • يعرض عن تفهمنا إعراضا •
وقد اعترف لي كثير من القراء أنهم لا يتذوقون هذه الأشعار إلا عند سماعها من أصحابها • مسألة تعود إذن • إذ أنهم اعتادوا أنغاما وتعابير وأبنية تدربوا على سماعها ومشاهدتها القرون الطويلة ، ودربتهم على الأحكام المسبقة •

18 ـ نحن أمة تأصل فيها الركون الى التقليد ، تقيس يومها بأمسها ، وتمشى باشارة من غيرها ، وتحتقر مبتكرات أبنائها •

19 ـ « على المحاولين الهدم والهدم والهدم ، إثارة الفضيحة والغضب والحقد وقد يتعرضون للاغتيال ، لكنهم يكونون قد لفظوا حقيقتهم على هذه القوافل ••• أول الواجبات التدمير • الخلق الشعرى الصافى سيتعطل أمره في هذا الجو العاصف • لكن لا بد ••• » (أنسي الحاج ـ من شعراء مجلة « شعر » اللبنانية) •

---

(1) الكلمة الاولى والثانية : « الفكر » ـ نوفمبر 69 ، جانفى 70 •

20 ـ لكن عملنا ليس عمل مقاومة وهدم • إنما هو عمل **إضافة** • إذ بقدر ما نعترف بقيمة تراثنا ونعتز به بقدر ما يحز في نفوسنا أن نكتفي به ونقف عنده •

ومع ذلك فقد نقف بعض **المواقف التطهيرية** • فنقول مثلا بوجوب المراجعة ، لازالة الحشو والتكرار • إذ **التاريخ** ـ الحركة التصاعدية المستمرة ـ **لا يعيد نفسه في مجال الادب والفن** إلا لدى القاصرين عن الخلق •

وما دواوين الشعر العمودي والحر اليوم في سنة 1970 ، بل وما ثلثا المكتبة العربية إلا من قبيل التاريخ يعيد نفسه •

21 ـ « إنها دائما حالة القلق والبحث والتنقيب ••• » (توفيق الحكيم) •

22 ـ الحرية في الفن ليست منحة ••• إنها كارثة ••• إن الذي يعيش داخل الفن التقليدي ••• ضامن النتيجة الطيبة ••• لكن الحرية في الخروج الى العراء ••• إنها خطوة غير مأمونة ، وعليك تحمل نتائجها » •

(توفيق الحكيم)

23 ـ لهذا النمط من الشعر مقومات موسيقية أهمها في رأيي لحد الآن :

ـ **الطاقة الصوتية الكامنة في اللغة نفسها** •

ـ **الطاقة الصوتية الذائعة في هذا العصر** • ما تسمعه وأنت واقف في قلب « باب البحر » بالعاصمة ، أو هابط في نهج القصبة ، أو عندما تكون في مزرعة أو غاب ، أو في القطار وأنت راجع الى منزلك •••

ـ **الاصوات الكامنة في ذات الشاعر • أنغامه الداخلية** •

24 ـ ولا يذهبن بك الظن الى أن المسألة تنحصر في مجرد الخروج عن « الوزن » إذن مسألة شكلية • جزئية • كلا • فما دام الشعر العربي يخضع لما عهدت من أوزانه فلن يحدث فيه جديد لا في مستوى العبارة ولا الصورة ولا المعنى ، باعتبار أن كل وزن من تلك الاوزان يجر وراءه هياكل (Structures) أكثر من 14 قرنا • وكلما أردت أنت الشاعر الكتابة على وزن منها أزدحمت في خاطرك ـ وأنت الانسان العربي ـ وتسربت من لا وعيك هذه الـ 14 قرنا ، وفرضت عليك نفسها بحق وصايتها على ذلك الوزن • **فلنخلق** إذن أشياءنا بأيدينا **ولنمارس** حرية الخلق ومتاعبها • وحينئذ فقط ، ينتهي تاريخ الحشو والتكرار ، وتتدحرج زوائد الكلمة بدون رجعة •

ط• ه•

تونس ، جانفي 1970

أضواء الفكر

• الانتاج الادبي وسلامة اللغة :

نظم يوم الجمعة 13 فيفرى 1970 نادى أبو القاسم الشابى الذى يرأسه الاستاذ الطاهر ثيقة مائدة مستديرة حول موضوع هام وهو الانتاج الادبى وسلامة اللغة · وقد شارك فى هذه الندوة الاساتذة : عبد الوهاب باكير ، وتوفيق بكار ، والبشير بن سلامة وأشرف عليها السيد الشاذلى القليبى وزير الشؤون الثقافية · وقد عبر كل من المشاركين عن وجهة نظره وعن منحاه فى معالجة هذا الموضوع ثم أفسح المجال للمناقشة فتحدث عدد كبير من الاساتذة عن رأيه فى هذه القضية منهم الاساتذة : أحمد العايد ، والدكتور فاضل الجمالى ، والدكتور محمد عبد المولى ، وعبد القادر المهيرى ، والبشير العريبى ، وعبد المجيد ذويب · ونظرا لضيق الوقت لم يتمكن المشاركون من الرد على مناقشيهم وتوضيح آرائهم كما أن نخبة من الشباب لم تعبر عن رأيها · واتفق الجميع على مواصلة الحوار فى فرصة أخرى ·

• الجوائز الأدبية :

بلغنا أن اللجان التى كونت للنظر فى الجوائز التشجيعية قد أنهت أعمالها منذ أسابيع واتفقت على مستحقى هذه الجوائز من شعراء وقصاصين وبحاثين ومؤرخين ومترجمين وغيرهم · بقى أن يقع الاعلان عن كل هذا وقد علمنا أن ذلك سيتم فى القريب العاجل ·

• وفاة الفيلسوف برتران روسل :

توفى فى أوائل فيفرى الفيلسوف الانقليزى « برتران روسل » (Bertrand Russel) وهو معروف عالميا بمواقفه الانسانية فى قضايا عالمية مثل الحرب النووية وحرب الفيتنام وتدخل روسيا فى تشيكوسلوفاكيا وغيرها وقد عرف هذا الفيلسوف العالم بتآليفه العديدة أيضا فى الحسابيات وفلسفة العلوم والاخلاق ونال عدة جوائز عالمية مثل جائزة نوبل الادبية سنة 1950 والجائزة العلمية لليونسكو سنة 1948 وغيرهما من الجوائز ·

• الفلسفة الاخلاقية لابن باجة :

أهدانا صديقنا الاستاذ المنجى الشملى مدير دار المعلمين العليا تأليفا له عن الفلسفة الاخلاقية لابن باجة من خلال « تدبير المتوحد » ·

نشكره على هديته ونبارك جهوده فى سبيل اثراء المكتبة التونسية بقيم البحوث ووافى الدراسات ·

• **فهرست مخطوطات المكتبة الأحمدية بتونس :**

أهدأنا الباحث المحقق صديقنا عبد الحفيظ منصور فهرست مخطوطات المكتبة الأحمدية وهو الجزء الاول من ثمانية أجزاء فى 472 صفحة من القطع الكبير نشرته له ممنونة دار الفتح للطباعة والنشر ببيروت ·

ونحن نشكر الصديق عبد الحفيظ منصور على حزمه وعزمه وتذليله لجميع الصعاب قصد ابراز هذا الفهرست الجليل الذى يمكن الخاص والعام فى المستقبل من معرفة كنوز خزانة جامع الزيتونة الزاخرة بالمصنفات فى جميع فنون المعرفة والتى لا شك أنها اليوم وضعت تحت تصرف جميع الباحثين ·

• ما يزال المكتب الدائم لتنسيق التعريب يواصل عمله وقد وصلتنا اخيرا مجموعة م ن المعاجم جمعت فيها المصطلحات الخاصة بالرياضة واللعب والالوان والسماكة والاسماك والآلات والادوات والاجهزة وأسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم ·

• كما ورد علينا من المغرب الاقصى كتاب أضواء على الاسلام والاسلام فى ينابيعه للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ·

• **عندما يطالب الموسيقيون بحق السكون :**

عقد المجلس الدولى للموسيقى جمعيته العمومية الثالثة عشرة بمقر اليونسكو بباريس فى نهاية شهر اكتوبر الماضى ·· وطالب هذا الاجتماع بحق السكون ···

لقد اصبح هذا مطلبا منطقيا مقبولا ومعقولا فى عهد تشقى فيه الآذان بضجيج يحيطها من مختلف المصادر ·· كالترانزيستورات والطائرات والسيارات وغيرها ·

مائة وخمسون موسيقيا وعالم موسيقى يمثلون اكثر من ثلاثين بلدا اجمعوا فى طلبهم الذى قدموه الى اللجنة التنفيذية للمجلس الدولى للموسيقى ، لتقوم بدراسة هذه المسألة من جميع وجوهها الطبية والعلمية والتعليمية ، وطالبوا اللجنة كذلك بأن تتقدم باقتراح ما تراه كفيلا بوضع حد لهذا النوع من التجنى على الحرية الفردية باستخدام الاصوات والضوضاء استخداما مبالغا فيه ·

وحدد المجلس الدولى للموسيقى ما اسماه « حق الانسان فى حماية حرية اذنيه » فقال ان السكون من الاحتياجات الرئيسية للانسان ، مثل

الاستجمام ··· ذلك انه لن يستطيع ابدا أن يبدع شيئا ذا قيمة طالما بقى محاصرا فى سياج من الضوضاء على اختلاف انواعها وشدتها ، وقال انه يرجو ان يتم الاعتراف بهذا الحق الذى يضارع فى أهميته حق الانسان فى الماء والهواء النقى ·

(أنباء اليونسكو)

الفكر : فهل نظر المجلس فى الموسيقى الحسية (musique concrète) المكونة من أصوات الطائرات والسيارات وغيرها ؟ وهل أصدر فيها رأيه واحتضنها مع الموسيقى أم اعتبرها من الخوارج ؟ وهل سيمضى بعد هذا الى المطالبة بحق المواطن فى الصمم الوقتى حتى لا يسمع ما يفسد عليه ذوقه ؟

• السياسات الثقافية :

انعقد اجتماع الخبراء فى مقر اليونسكو بين 16 و 19 يونيو 1969 لاعداد المؤتمر الدولى الحكومى للسياسات الثقافية الذى تنظمه اليونسكو عام 1970 · وضم هذا الاجتماع 19 عضوا دعاهم المدير العام بصفتهم الشخصية ، ومراقبين من تسع منظمات دولية غير حكومية ، ومن اللجان الوطنية سبع دول اعضاء · وقد انتخب الاجتماع الدكتور ح· بهمان (ايران) رئيسا ، والسادة جان باجلا (تشيكوسلوفاكيا) و هـ· س· كومبز (استراليا) وسيزار ميرو (بيرو) نوابا للرئيس ، والسيد البير هوبا (ساحل العاج) مقررا ·

وكانت مهمة الخبراء وضع توصيات للمدير العام بشأن جدول اعمال المؤتمر الدولى الحكومى والوثائق التى ينبغى ان تقدمها له السكرتارية · وتطبيقا لقرار المؤتمر العام لليونسكو فى دورته الخامسة عشرة سيبدأ بدراسة المشكلات التنظيمية والادارية والمالية التى يواجهها العمل الثقافى · وسيتيح المؤتمر حسب رغبة المجلس التنفيذى لليونسكو ، الفرصة لمناقشة المشكلات الثقافية العامة · وهذا المؤتمر مفتوح امام جميع الدول الاعضاء فى اليونسكو ·

ويمكن تلخيص اهداف المؤتمر فيما يلى : معاونة اليونسكو فى اعداد برنامج طويل للتعاون المباشر بين الدول الاعضاء فى هذا الميدان ، وتهيئة الفرص لتبادل المعلومات والخبرات والافكار ، والتنبيه الى اهمية الثقافة فى الحياة القومية ·

وقائع اليونسكو سبتمبر 1969